الفصلُ الأول
ابنٌ تيمية.. حياته، وعصره، وأبرز مَن تأثّر بهم

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: اسمه ونسبه، حياته ونشأته، وشخصيته السياسية.**
- **المبحث الثاني: عصره.**
- **المبحث الثالث: تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري.**
- **المبحث الرابع: ثناء العلماء عليه.**

المبحثُ الأول

اسمه ونسبه، وحياته ونشأته، وشخصيته السياسية

•اسمُه ونسبُه:

هو الشيخ الإمام العالم المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيمية النميري الحراني، ثمّ الدمشقي الحنبلي[1].

(١) انظر ترجمته:
١- ذيل تاريخ الإسلام للإمام شمس الدين الذهبي، ص(٢٢).
٢- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ عمر بن علي البزار ت ٧٤٩، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط: ٣، ١٤٠٠هـ، بيروت، لبنان، ص(١٢).
٣- ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لابن حجر العسقلاني، ت: سعيد نغشاشة، دار ابن حزم، ط: ١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ص(١٩).
٤- العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي ت ٧٠٥/ ٧٤٤هـ، دراسة وتحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، ط: أولى، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ص(٣).
٥- الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية، تأليف الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي المتوفّى سنة ١٠٣٣هـ، تحقيق وتعليق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
٦- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (ت ١٠٣٣هـ)، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، ص(٢٣).
٧- الدّرر الكامنة لابن حجر، ص(٥٢٣) من الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جَمَعَه ووضع فهارسه: محمد عزيز شمس، ومحمد بن علي العمران، بإشراف: العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، ط مؤسسة الراجحي، دار علم الفوائد.
٨- ترجمة ابن تيمية لابن كرد علي، ط ١، ١٣٨١هـ، دمشق، ط٢، ١٣٩١هـ، دمشق.
٩- مختصر طبقات علماء الحديث، للعلامة محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (ت ٧٢٤)، ص(٢٤٨)، من الجامع لآثار ابن تيمية.
انظر: البداية والنهاية، (١٣/ ٢٥٥)، (١٧/ ٤٥١)، الجامع.

• **مولده:**

كان مولد شيخ الإسلام ابن تيمية في عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة بحرّان[١]، وقدِمَ مع والده إلى دمشق[٢].

بقي ابن تيمية في حرّان إلى أن بلغ سبع سنين، ثمّ انتقل إلى دمشق بعد غارات التتار[٣] عليها.

وحرّان بلدةٌ قديمة كانت مِن أهمّ مراكز الديانات القديمة شمال شرقي الجمهورية التركية، قرب أورفة.

• **سببُ تسمية شيخ الإسلام بابن تيمية:**

قيل: إنّ جده محمد بن الخضر حجّ على درب تيماء، فرأى هناك طفلة، فلمّا رجع وجدَ امرأته قد ولدت له بنتًا، فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلُقّب بذلك.

قال ابن النجار: ذكر لنا أنّ جده محمدًا كانت أمُّه تسمّى تيمية، وكانت واعظة، فنُسب إليها وعرف بها[٤].

• **سببُ تلْقيبه بشيخ الإسلام:**

يقول صاحبُ الردّ الوافر: «إنّ لفظ شيخ الإسلام يحتمل وجوهًا من معاني الكلام:

---

(١) حران بلدة قديمة كانت من أهم مراكز الديانات القديمة شمال شرق الجمهورية التركية قرب أورفة، وهي الآن بلدة عامرة، والنسبة إليها حراني وهو الشايع، والصواب حرناني. راجع: معجم البلدان، (٢/ ٢٣٥)، ومعجم ما استعجم، (١/ ٣٣٥).

(٢) انظر: ذيل تاريخ الإسلام، للحافظ شمس الدين الذهبي، ت/ محمد بن ناصر العجمي، ط: أولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار ابن الأثير، الكويت، ص(٢٢).

انظر: البداية والنهاية، (١٣/ ٢٥٥)، (١٧/ ٤٥١) سنة (٦٦٦)، وفي البداية والنهاية أنّ عمره كان ستّ سنوات.

الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للحافظ ابن عمر بن علي البزار، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، تحقيق: زهير الشاويش، ط٢، سنة ١٣٩٦هـ، ص(١٦).

(٣) التتار: قبائل كانت تسكن أواسط آسيا، بين بحيرة بايسكال وجبال التائي، منهم المغول. والمغول دولتان: الأولى أسسها جنكيز خان في آسيا الوسطى، والثانية أسسها أحفاد تيمور لنك في الهند ١٥٢٦م.

(٤) العقود الدرية، ص(٤) لمحمد عبد الهادي، والكواكب الدرية، ص(٥٢)، والشهادة الزكية، ص (٢٥)، ومختصر طبقات الحديث للعلامة محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، ص (٢٤٨).

منها: أنه شيخ قد شاب وانفرد عمّن مضى عن الأتراب، وحصل على الوعد المبشّر بالسلامة أنه شاب في الإسلام، فهي له نور يوم القيامة.

ومنها: ما هو في عرف العوام أنه العدّة، ومفزعهم إليه في كلّ شدة.

ومنها: أنه شيخ الإسلام بسلوكه طريقةِ أهله؛ قد سلم من شرّ الشباب وجهله، فهو على السنّة في فرضه ونفله.

ومنها: شيخ الإسلام بالنسبة إلى درجة الولاية، وتبرك الناس بحياته، فوجوده فيهم الغاية.

ومنها: أنه معناه المعروف عند الجهابذة النقاد، والمعلوم عند أئمة الإسناد أنّ مشايخ الإسلام والأئمة الأعلام هُم المتبعون لكتاب الله – عز وجل – المقتفون لسنة النبي ﷺ، الذين تقدّموا بمعرفة أحكام القرآن ووجوه قراءاته، وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، والأخذ بالآيات المُحكمات والإيمان بالمتشابهات، قد أحكموا مِن لغة العرب ما أعانهم على علم ما تقدّم، وعلموا بالسنة نقلًا وإسنادًا وعملًا كما يجب به العمل اعتمادًا وإيمانًا بما يلزم مِن ذلك اعتقادًا واستنباطًا للأصول والفروع من الكتاب والسنة، قائمين بما فرض الله عليهم، مُتمسكين بما ساقه الله من ذلك إليهم، متواضعين لله العظيم الشأن، خائفين من عثرة اللّسان، لا يدّعون العصمة، ولا يفرحون بالتبجيل، عالمين أنّ الذين أوتوا من العلم قليل، فمَن كان بهذه المنزلة حكم بأنه إمام، واستحقّ أن يقال له: شيخ الإسلام.

فهذا هو شيخ الإسلام، وقد تمثّلت به هذه الصفات جميعها خيرَ تمثيل، لذلك استحقّ هذا اللقب الكريم[1].

•نشأته وأسرته[2]:

نشأ ابن تيمية في حرّان إلى أن بلغَ سبع سنين، ثمّ انتقل إلى دمشق المحروسة.

---

(١) الردّ الوافر، ص(٤٤٩) عن القول الجلي، للعلامة سيد صفي الدين الحنفي، ط: دار لينة للنشر، دمنهور، مصر.

(٢) انظر: الأعلام العلية، ص(١٦)، وابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية، محمد أبو زهرة، ط: دار الفكر العربي، ١٩٩١م القاهرة، ص(١٧).

نشأ في بيت علمٍ وفقْه ودين، وأبوه وأجداده وإخوانه، وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير.

لقد كان ابن تيمية حنبليًّا بنشأته وأسرته، وثقافته الفقهية وميله في دراسته، مع أنّ له اختيارات من غير مذهب أحمد.

كان والد ابن تيمية- رحمه الله- له كرسي للدراسة والتعليم والوعظ والإرشاد، وقد ذاع صيتُه وفضله بمجرّد أن وصل دمشق، وتولى مشيخة دار الحديث السكرية، وبها كان سكنه، وتربى ولدُه تقي الدين بها، وكان يتميز بقوة الحافظة والقدرة على البيان، وثبات الجنان، ولقد ورث شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الصفات.

وكان عمّه فخر الدين[1] عالمًا وخطيبًا وواعظًا، وجمع تفسيرًا للقرآن حافلًا في مجلّدات ضِخام، وقد تخرج عن ابن الجوزي خطيب بغداد وواعظها، وحلّ محلّه في الوعظ، وقد أخذ ابن تيمية العلم عنه.

وأيضًا كان جدّه أبو البركات مجدّ الدين[2] من أئمة المذهب الحنبلي وكبار علمائه، يقول الإمام الذهبي مادحًا له: كان الشيخ مجد الدين معدوم النظير في زمانه، رأسًا في الفقه وأصوله، بارعًا في الحديث ومعانيه، له اليدُ الطولى في معرفة القرآن والتفسير، صنّف التصانيف، واشتهر وبَعُد صيته، كان فريد زمانه في معرفة المذاهب، مفرط الذكاء، متين الديانة، كبير الشأن[3].

---

(١) هو محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن تيمية الحراني، الحنبلي، مفسر وخطيب وواعظ، كان شيخ حرّان وخطيبها، ولد في حرّان: ٥٤٢هـ، وتوفي عام ٦٢٢هـ، ومن كتبه: التفسير الكبير، ويقع في عدّة مجلدات، وتخليص المطلب في تلخيص المذهب، وترغيب القاصد. انظر الوافي بالوفيات، (١٨/ ٢٦٠)، والأعلام، (٦/ ١١٣).

(٢) هو مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني أبو البركات مجد الدين، فقيه حنبلي محدّث مفسّر، ولد بحران عام ٥٩٠هـ، وحدث بالحجاز والعراق والشام ثمّ ببلده حرّان، وتوفي بها عام ٦٥٢هـ، كان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي، من كتبه: تفسير القرآن العظيم، وهو جدّ الإمام ابن تيمية. راجع: فوات الوفيات، (١/ ٢٧٤)، والأعلام، (٤/ ٦).

(٣) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة للعليمي، ص(٤٩)، ط: أولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، بيروت، لبنان.

قال الحافظ الشريف عزّ الدين: «حدث بالحجاز والشام والعراق وبلدة حرّان، وصنف ودرس، وكان من أعيان العلماء وأكابر الفضلاء ببلده، وبيته مشهور بالعلم والدين والحديث».

أخذ عنه العلمَ جماعةٌ من العلماء أشهرهم ابنه شهاب الدين عبد الحليم، والحافظ عبد المؤمن الدمياطي، وآخرون.

له من المصنّفات: كتاب الأحكام الكبرى، وكتاب المنتقى من أحاديث الأحكام، وله المسودة في الأصول، والتي زاد فيه ولده شهاب الدين، ثمّ حفيده أبو العباس تقي الدين.

توفّي- رحمه الله تعالى- يومَ عيد الفطر بعد صلاة الجمعة من سنة اثنتين وخمسين وستمائة بحرّان، ودفن بظاهرها[1].

نشأ ابن تيمية- رحمه الله تعالى- في تصوّن تام، وعفاف وتألّه، واقتصاد في المأكل والملبس، برًّا بوالديه، تقيًّا عابدًا ناسكًا صوّامًا قوّامًا[2].

يقول الحافظ عمر بن علي البزار المتوفى سنة ٧٤٩هـ: «إنه نشأ في دمشق أتمّ إنشاء وأزْكاه، وأنبته الله أحسنَ النبات وأوفاه، وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة، ودلائل العناية فيه واضحة، ثمّ ذكر أنه منذ صغره كان مُستغرق الأوقات في الجدّ والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا، ثمّ اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك، مع ملازمته مجالس الذكر والآثار، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية.

أمّا دواوين الإسلام الكبار كـ: مسند أحمد[3] وصحيح البخاري[4] ومسلم[5] وجامع

(١) انظر: مقدمة الجامع لسيرة شيخ الإسلام، الشيخ بكر أبو زيد، ص(١٨).
(٢) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، محمد عز الدين شمس، وعلي بن محمد العمران، إشراف وتقديم الدكتور بكر أبو زيد، ط: مؤسسة الراجحي، دار علم الفوائد، ط: ٢، ١٤٢٢هـ، ص(١٩).
(٣) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ولد ١٦٤، توفي عام ٢٤١ هـ ببغداد.
(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، ولد عام ١٩٤، وتوفي عام ٢٥٦هـ.
(٥) مسلم بن الحجاج القشيري، ولد عام ٢٠٤ هـ، وتوفي عام ٢٦١هـ.

الترمذي[١] وسنن أبي داود السجستاني[٢] والنسائي[٣] وابن ماجه[٤] والدارقطني[٥]؛ فإنه- رحمه الله ورضي عنهم وعنه- سمع كلّ واحدٍ منها عدّة مرات.

وأوّل كتاب حفظه في الحديث «الجمع بين الصحيحين» للإمام الحميدي[٦].

وقلّ كتاب من فنون العلم إلّا وقف عليه.

وكأنّ الله قد خصّه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء- غالبًا- إلّا ويبقى على خاطره، إمّا بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه اختلط بلحمه ودمِه وسائره، فإنه لم يكن له مستعارًا، بل كان له شعارًا ودثارًا، لم يزل آباؤه أهل الدّراية التامّة والنقد والقدم الراسخة في الفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة، ووفّقه في جميع أمره لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة، حتى اتّفق كلّ ذي عقل سليم أنه ممّن عنى نبينا ﷺ بقوله: «**إن الله يبعث على رأس كلّ مائة سنة مَن يجدّد لهذه الأمّة أمر دينها**»[٧]؛ فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين، وجعله حجّة على أهل عصره أجمعين، والحمد لله رب العالمين»[٨].

لقد هيّأ الله لشيخ الإسلام ابن تيمية نفسًا صافية زكيّة مُقبلة على العلم محبّة له، ولعلّ بيئته كانت من أكبر الحوافز على ذلك؛ لذلك تعلّم الخطّ والحساب في الكتّاب، وحفظ القرآن وهو في الصغر، أتقن العلومَ من التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والتاريخ والجبر والمقابلة والمنطق والهيئة وعلم أهل الكتابين والملل الأخرى، وعلم أهل البدع وغيرها؛ وهو ابن بضع عشرة سنة، حتى إنه حذق العربية في أيام، وفهِمَ كتاب سيبويه في أيام، وفي الحديث والتفسير كان منقطع النظير.

---

(١) هو الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ولد عام ٢٠٠ هـ، وتوفي ببلده ترمذ ٢٧٩ هـ.
(٢) أبو داوود سليمان بن الأشعث، ولد عام ٢٠٢ هـ، ومات عام ٢٧٥هـ.
(٣) أحمد بن علي النسائي، ولد عام ٢١٥، وتوفي عام ٣٠٣ هـ.
(٤) ابن ماجه هو محمد بن يزيد بن ماجه، ولد ٢٠٩، وتوفي عام ٢٧٣هـ.
(٥) هو الإمام علي بن عمر الدارقطني، ولد عام ٣٠٦، وتوفي عام ٣٨٥هـ.
(٦) هو محمد بن فلوح، ولد عام ٤٢٠، وتوفي عام ٤٨٨هـ.
(٧) سنن أبي داود، (٤/ ١٠٩)، وقال الألباني: صحيح.
(٨) الأعلام العلية، ص(١٦-١٩).

لقد ناظر واستدلّ وهو دونَ البلوغ، وأفتى في سن السابعة عشرة من عمره، أي: سنة ٦٧٧هـ، ودرّس في الحادية والعشرين من عمره، أي: سنة ٦٨١؛ بعد موت أبيه في المدرسة السكرية، وتولّى مشيختها يوم الاثنين ٢/ ١/ ٦٨٣هـ.

بدأ يدرّس بالجامع الأموي في١٠/ ٢/ ٦٩١هـ، أي: وهو ابن ثلاثين سنة، واستمر سنين مُتطاولة.

حجّ مرّة واحدة سنة ٦٩٢هـ، أي: وعمره إحدى وثلاثون سنة، وبعد عودته من الحج آلتْ إليه الإمامةُ في العلم والدين.

ونشر العلم في دمشق، والقاهرة والإسكندرية وفي سجونهما.

درّس بالمدرسة الحنبلية في يوم الأربعاء ١٧/ ٨/ ٦٩٥هـ.

أوّل رحلاته إلى مصر في القاهرة والإسكندرية مرّتين سنة ٧٠٠هـ، ثمّ عاد إلى دمشق، ثمّ رجع إلى مصر سنة ٧٠٤هـ، وكانت إقامته بها نحو سبع سنين وسبع جمع، أي: إلى سنة ٧١٢هـ، متنقلًا في جلّها بين سجون القاهرة والإسكندرية.

بدأ في التأليف وهو ابنُ سبع عشرة سنة[١].

يقول الذهبي- واصفًا فضل ابن تيمية-: وكان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدلّ ورجّح يحقّ له الاجتهاد؛ لاجتماع شروطه فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدّالة على المسألة التي يوردها، ولا أشدّ استحضارًا لمتون الأحاديث[٢].

• **صفاته الخِلقية:**

كان الشيخ أبيض، أسودَ الشعر واللّحية، قليل الشّيب، شَعْرُه إلى شحمة أذنيه، كأنّ عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيدَ ما بين المنكبين، جهْوَري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة، ثمّ يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء[٣].

(١) مقدمة الجامع، ص(١٩-٢٠).
(٢) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام، ص(٢٣).
(٣) ذيل تاريخ الإسلام، ص(٢٢-٢٣).

«وكان متوسطًا في لباسه وهيئته، لا يلبس فاخرَ الثياب بحيث يرمق، ويمدّ النظر إليه، ولا أطمارًا ولا غليظة تشهر حالَ لابسها، وهيئته كغالب الناس ومتوسطهم، ولم يكن يلزم نوعًا واحدًا من اللّباس، فلا يلبس غيره، بل كان يلبس ما اتّفق وحصل»[1].

وقد وهبه الله – عز وجل – ذكاء مفرطًا، وقوة حافظة، وسرعة إدراك[2].

• **صفاته الأخلاقية:**

كتب كثيرٌ من المؤرخين والعلماء عن صفات شيخنا الفاضل ابن تيمية، وذلك لما خصّه الله به من صفات جعلته آيةً من آيات الله في زمانه، وفي أزمنة أخرى كثيرة.

لقد كان في نجابته وذكائه وأخلاقه وإقباله على العلم والتعلم وعلو الهمة في كلّ مناحي الخير؛ مضربَ الأمثال. ولقد كتب كثيرٌ من العلماء عن أخلاقه إمّا بصورة إجماليّة مثل: محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المتوفّى سنة٧٤٤هـ؛ حيث ذكر أنه نشأ في تصوّن تامّ وعفاف وتألّه واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزلْ على ذلك خلفًا صالحًا سلفيًّا برًّا بوالديه تقيًّا ورعًا عابدًا ناسكًا، صوّامًا قوّامًا ذاكرًا لله– تعالى– في كلّ أمر وعلى كلّ حال، رجّاعًا إلى الله في سائر الأحوال والقضايا، وقّافًا عند حدود الله، وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، نفسُه لا تشبع من العلم، ولا تُروَى من المطالعة، ولا تملّ من الانشغال، ولا تكلّ من البحث، وقلّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلّا أن يُفتح له من ذلك الباب أبوابٌ، ويستدرك أشياء في العلم على حذّاق أهله، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويتكلّم ويناظر ويفهم الكبار، ويأتي بما يتحيّر منه أعيانُ البلد في العلم، وأفتى وله نحو سبع عشرة سنة، وشرع في الجمْع والتأليف في ذلك الوقت، ودرّس وله نحو إحدى وعشرين سنة، وحجّ سنة إحدى وتسعين، وله ثلاثون سنة، ورجع وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزّهد

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد كرد علي– رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ط١، ١٣٨١هـ، دمشق ص(٢)، ١٣٩١، دمشق في كتابه كنوز الأجداد ص(١٨)، وفوات الوفيات، ص(٣٩٠) لابن شاكر الكتبي، والأعلام العلية، ص(٥٣).

(٢) الدرر الكامنة، (١/ ١٥٤)، وترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٨)، والعقود الدرية، ص(٢٠).

والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأنَاة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة والصيانة وحُسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله وشدّة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسّك بالأثر والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفْع الخلق والإحسان.

وكان- رحمه الله- سيفًا مسلولًا على المخالفين، وشجى في حلوق أهلِ الأهواء والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحقّ ونصرة الدين، طنّت بذكره الأمصار، وضنّت بمثله الأعصار[1].

لقد كان ابنُ تيمية آيةً من آيات الله في ذكائه ونجابته وإقباله على العلم والتعلّم والحفظ، كما كان- رحمه الله- مضربَ الأمثال في أخلاقه. ولقد كتب الكثيرون عن أخلاقه الرائعة التي لا نستطيع الإلمامَ بكلّ ما قيل عنه في هذه الدّراسة، وتلك نبذة قصيرة عن أخلاقه التي اشتُهر بها بين الناس، ومِن ذلك:

- **الرّبّانية:**

كان ابن تيمية محبًّا لله - عز وجل - حبًّا شديدًا يملك عليه نفسَه؛ حيث جعل عبادته لربّه محورَ حياته، فتراه مُنشغلًا بالعبادة بكلّ أنواعها، خاليًا بربّه، ضارعًا مواظبًا على تلاوة القرآن الكريم، مُحافظًا على العبادات النّهارية والليلية.

يقول البزار- رحمه الله- واصفًا صلاتَه: كان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنّتها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرمَ بالصلاة تكاد تنخلعُ القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعدُ أعضاؤه، تُميله يمنة ويسرة، وكان إذا قرأ يمدّ قراءته مدًّا كما صحّ في قراءة رسول الله ﷺ، وكان ركوعه وسجوده وانتصابُه عنهما مِن أكمل ما ورد في صلاة الفرائض، وكان يخفّف جلوسه للتشهد الأوّل خفّة شديدة، ويجهر بالتسليمة الأولى حتى يسمع كلّ مَن حضر، فإذا فرغ من صلاته أثنى على الله - عز وجل - [2].

(١) مختصر طبقات علماء الحديث، محمد أحمد عبد الهادي الحنبلي، ص(٢٤٨).
(٢) الأعلام العلية، (٣٦، ٣٧).

وكان حريصًا على الدّعاء بعد كلّ صلاة بالمأثور عن النبي ﷺ والدعاء له وللمسلمين، ثمّ يأخذ في تلاوةِ أوراده بعد صلاة الفجر بذكر الله، لا يكلّمه أحدٌ ولا يتكلّم مع أحدٍ من الناس حتى ترتفع الشمس، ثمّ يذهب إلى المنزل، فإذا مرّ بجنازة شيّعها، ويمرّ على الناس يسلّم عليهم ويتفقّد أحوالهم، ثمّ يعود إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس وقضاء حوائجهم حتى صلاةِ الظهر، ثمّ يصلي المغرب، ثمّ يتطوّع لقراءة مؤلفاته حتى يصلّي العشاء، ثمّ يعود إلى العلم مرة أخرى، فلا يزال ذاكرًا لله طوالَ وقته يوحّده ويستغفره، وكان دائمًا يعود المرضى في كلّ أسبوع، خاصّة بالمارستان، وهكذا يقضي نهاره وليلَه ما بين العلم والعبادة وخدمة الناس، وإفادتهم، ولا ينسى أبدًا ذكره لله[1].

إنّنا نجد أنّ ابن تيمية كانت له شخصيةٌ نظيفة من الأنانية وحبّ الذات؛ حيث كان هدفه في الحياة تعلّمَ الدين وتعليمَه للآخرين، فكان سعيُه دائمًا لإعلاء شأن الدين وتصحيح العقيدة لدى الناس، وتنظيفها ممّا علق بها من الشوائب، وما كان هذا الأمر ليتحقّق لو كان للدنيا نصيبٌ في حياته، ويضاف إلى الإخلاص والتفاني في خدمة الدين شجاعةٌ نادرة تميّزت بالجَلَد والصبر، لذلك لم يكنِ ابن تيمية ليتردّد لحظة واحدة في إعطاء الدّروس أينما وجِد، وكذلك التدخّل في النقاش مهْما يكنِ الموضوع، ما دام في الشريعة واتباعًا لسنة المصطفى ﷺ، وكان يجاهد آمرًا ومأمورًا في سبيل الله حين يتطلّب الأمر مثل ذلك، كما حدث في اشتراكه في الحروب ضدّ التتار في أكثر المواقع[2].

• **فقرٌ وإيثار:**

كان – رحمه الله – تاركًا للدّنيا فقيرًا فيها، وكان مع ذلك يتصدّق بالقليل والكثير، حتى إذا لم يجدْ شيئًا يتصدّق به؛ نزع بعض ثيابه المحتاج إليها وأعطاها للفقير، وكان يتصدّق بقوته وطعامه ولو برغيف أو رغيفين، مؤثرًا بذلك على نفسه، وكان أكثر تصدّقه على الغرباء وطلبة العلم الفقراء، مِن الفقهاء والقراء، ومساعدته لهم ولغيرهم من المحتاجين[3].

(١) الأعلام العلية، ص(٣٩-٤١)، والكواكب الدرية، ص(٨٣).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، محمد أبو زهرة، ص(٨٥)، وما بعدها.
(٣) الأعلام العلية، ص(٤٨-٥٠).

• **التواضع:**

كان الشيخ ابن تيمية – رحمه الله – لا يبخلُ بمجلسه على أحد؛ فكان يحضر مجلسَه الصغيرُ والكبير والعبدُ والحرّ، والأنثى والذكر؛ فهو عامّ لجميع الناس، وكان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغني الصالح والفقير، وكان يخدمه بنفسِه ويُعينه على قضاء حاجته، جبرًا لقلبه وتقرّبًا إلى الله بذلك.

كان– رحمه الله– لا يسأم مِن الفتوى، ويقابل الناس بالبَشاشة وسعة الصدر حتى يُفهِمَهم ما يسألون عنه، فقد كان متواضعًا في جميع أحواله، فكان يجلس تحت الكرسي ويدعُ صدرَ المجالس[1].

يقول عنه البزار: وأظهر لي مِن حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث إنه كان إذا خرجنا مِن منزله بقصد القراءة يحملُ هو بنفسه النّسخة، ولا يدع أحدًا منّا يحملها، وكنت أعتذر إليه من ذلك خوفًا من سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله[2].

• **زهدُه وتقاعدُه عن الدنيا:**

إذا تأمّلنا حياة هذا الشيخ الجليل لوجدنا أنه عاش حياته منذ صغره لهدفٍ محدّد، وهو إرضاء ربّ العالمين، والسعي للدار الآخرة، ولقد جعله هذا الهدف غير راغب في الدّنيا، ومُتحرّرًا من عبوديتها له، فمنذ أنْ كان صبيًّا رافضًا للجائزة التي جعلها له والده لتحفّزه على حفظ كتاب الله، قائلًا: إنّه لا يأخذ على القرآن أجرًا، إلى أنْ كان شيخًا اشتُهر في أهل زمانه أنه أزهدُ الناس وأكملُهم في رفض فضول الدنيا، فلم يُسمَع عنه رغبتُه في زوجةٍ حسناء أو دارٍ أو بستان أو عقار، ولا سعى للرئاسات وأبواب الملوك كما يسعى غيرُه، بل سعى إليه الأمراءُ والملوك والتجار خاضعين لقوله وفضله[3].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٥٠، ٥١).
(٢) الأعلام العلية، ص(٥٢).
(٣) الأعلام العلية، ص(٤٥، ٤٦)، والكواكب الدرية، ص(٨٤).

• **ورعُه وكرمُه:**

كان – رحمه الله – غايةً في الورع، فما خالط الناسَ في بيعٍ ولا شراء، ولا معاملةٍ ولا تجارة، ولا مشاركة ولا زراعة، ولا عمارة، ولا كان ناظرًا مباشراً لحال وقف، ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر، ولا كان مدّخرًا دينارًا ولا درهمًا، ولا متاعًا ولا طعامًا، وإنما كانت بضاعته مدّة حياته وميراثه بعد وفاته – رحمه الله – العلمَ اقتداءً بسيد المرسلين ﷺ.

أمّا عن كرمه، فقد كان مَجبولاً على الكرم؛ فهو له سجيّة، فقد كان لا يردّ مَن يسأله شيئًا يقدرُ عليه من دراهم ولا دنانير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، وإذا سأله فقيرٌ شيئًا ليس عنده أعطاه أي شيء مِن لباسه ولم يدعْه يذهب بلا شيء، بل ربّما قسَمَ عمامتَه نصفين لمَن لم يجدْه مُعتمًّا، واعتمَّ هو بالنصف الآخر، لقد كان جوادًا بالميسور كائنًا ما كان[1].

وهذا مِن أبلغ إخلاص العمل لله – عز وجل –، وهو– أيضًا– كان لا يمنع أحدًا من كتاب ينتفع به أو مصحفٍ قد اشتراه بدراهم كثيرة، وكان ينكر على مَن يمنع الناسَ الكتبَ والعلم، فسُبحان الموفّق إلى العمل الصالح الذي يحبّه ويرضاه[2].

• **قوّةُ قلبه وشجاعتُه:**

يقول البزار: كان – رحمه الله – مِن أشجع الناس وأقواهم قلبًا، ما رأيت أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظمَ عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويدِه، ولا يخاف في الله لومةَ لائم، وأخبر غيرُ واحدٍ أنّ الشيخ τ إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهادٍ يكون بينهم واقيتَهم، وقطبَ نباتهم، إنْ رأى مِن بعضهم هلعًا أو رقّة أو جبانة شجّعه وثبّته وبشّره، ووعدَه بالنصر والظفر والغنيمة، وبيّن له فضلَ الجهاد والمجاهدين وإنزالَ الله عليهم السّكينة، وكان إذا ركب الخيل يتحنّك ويجول في العدو، كأعظم الشجعان، ويقوم كأثْبَت الفرسان ويكبر تكبيرًا أنكى في العدو مِن كثير مِن الفَتك، ويخوض فيهم خوضَ رجلٍ لا يخاف الموت[3].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٤٢-٤٤)، والكواكب الدرية، ص(٨٥، ٨٦).
(٢) الأعلام العلية، ص(٦٣-٦٦).
(٣) الأعلام العلية، ص(٦٧، ٦٨).

وطرفًا مِن شجاعته- أيضًا- أنه كان لا يخاف السلاطين، فكان يذهب إليهم وينصحهم ويسألهم دون خوف أو تردّد، ومِن ذلك موقفه مع السطان غازان، وأيضًا- في موقفه مع السلطان الملك الناصر محمد ما يشهدُ له بذلك[1].

• **قوّتُه في مرضاة الله - عز وجل -:**

كان للشيخ من القوة والجَلَد في مرضاة الله والصبر على الشدائد والثبات على الحقّ ما شهدَ به جميعُ علماء وأهل زمانه، وعرف عنه أنه كان ذا نظرٍ لا يحيد لحظةً عن رؤية الحقّ والجهاد في سبيل الله، فكرهه بعضُ الناس وحقد عليه وحسده ضعافُ النفوس وطلّاب الرئاسة، وكثر الواشون به عند السلاطين؛ لأنه كان يقول الحقّ ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يُثْنيه عن قول الحقّ تحاسد أو عداء، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا، ولم يوَلّهم دبُرَه فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتكَ به مرارًا وأوْسعوا حيلَهم عليه إعلانًا وإسْرارًا، فجعل الله حفظه منهم له شعارًا ودثارًا، ولقد ظنّوا أنّ في حبْسه شينة؛ فجعل الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه وادُّه أقرّ به عينه؛ فإنّ الله- تعالى- لعلمه بقرب أجلِه ألبسه الفراغَ عن الخلق للقدوم على الحقّ أجمل حُلَلِه، كوْنه حُبس على غير جريرةٍ ولا جريمة، بل على قوّة في الحقّ وعزيمة[2].

إنّ شخصية ابن تيمية لعجيبةٌ في كلّ شيء؛ في حرصها على العلم، وفي حرصها على طاعة الله، والدار الآخرة، وفي حرصها على النّيل والظفر بدرجات الفضائل كلّها، فكان لها أنْ تسمو إلى أعلى، وأنْ يهبها الله بكلّ ما يزيدها ولا ينتقصها.

لقد وهبَهُ الله الفراسةَ والكرامة، وجعله حجّة عصره، وشيخًا رائعًا للإسلام والمسلمين.

«حَتَّى إنّ أهل البَلَد البعيد عَنهُ كَانُوا يرسلون إليه بالاستفتاء عَن وقائعهم، ويعوّلون عَلَيْهِ فِي كشف ما التبس عَلَيهم حكمه، فيشفي غلّتهم بأجوبته المسدّدة، ويبرهن على الحقّ من أقوال العلماء المقيدَة، حتَّى إِذا وقف عَليها كلّ محقّ ذُو بَصيرَة وتقوى ممَّن قد وفق لترك الهوى أذعَنَ

(١) الأعلام العلية، ص(٦٧).
(٢) الأعلام العلية، ص(٧٦، ٧٧).

بقبولها، وَبان لَه حقّ مَدلولها، وإنْ سمع عَن أحدٍ مِن أهل وقته مُخالفَته في حقّه المَشهور يكون ممَّن قد ظهر عليه للخاصّة وللعامّة فعل الشرور والاشتغال بترّهات الغرور»[1].

• **شخصيتُه السياسيّة:**

عاش ابن تيمية حياتَه كلّها وهو يضع نصبَ عينيه أنّ حال الأمّة لن يكون صالحًا إلّا إذا تمسّك بشرع الله نقيًّا خاليًا من الأدْران والبدع، ولعلّ محور حياته كلّها دار حول هذا الهدف، ولن يتحقّق هذا الهدف إلّا بالنظرة الشمولية للإسلام، فهو قولٌ وعمل، وحياة اجتماعية ودينية وسياسية لا انفصام بين هذه الجوانب ولا اختلاف، بل هناك تلاصق تامّ، وتمازُج رهيبٌ بين جميع الجوانب كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر.

لذلك اهتمّ شيخ الإسلام بالحياة السياسية كما اهتمّ بغيرها، ولعلّ أهمّ المواقف التي جعلت ابن تيمية يعي معنى السياسة وتأثيرها في حياة الناس موقفُه عندما خرج مع والديه تاركًا بلدته (حرّان) التي تربّى بها، لا يهتمّون فيها بمنازلهم وأموالهم، خرجوا حرصًا على حياتهم من هوْل التتار ووحشيتهم، وهُم يعانون المشقّة في الطريق، كما أنه رأى فزعَ الناس وهروبهم إلى دمشق، فكَرِهَ التتارَ وكرهَ الغزاة والظالمين، ثمّ استوى رجلًا فأخذ يقودُ الجحافل لقتالهم، لقد كان يراهم بُغاةً ظالمين يجب قتالهم حتى يتوبوا أو يقدر عليهم قضاؤهم حتى تخرج الشعوب التي يهضمون حقوقَها من تحت سلطانهم، ويعيثون فسادًا في الأرض»[2].

وظهرتْ شخصية ابن تيمية الفعليّة منذ سنة ستّ وتسعين وستمائة، وبدأ تعويل الأمّة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان، فقام بأعباء الأمْر بنفسه، واجتمع بنائبه، وتوجّه بعد ذلك إلى الدّيار المصرية لمّا اشتدّ الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدّولة، وحضّهم على الجهاد، ثمّ عاد بعد أيام على دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك، إلى

(١) السابق، ص(٧٩).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٨) بتصرف.

أن ورد الخبر بانصرافهم، وقيامه المحمود في وقعة شقحب[1] سنة اثنتين وسبعمائة، واجتماعه بالخليفة والسلطان، وأرباب الحلّ والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثمّ توجّهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيّين واستئصال شأفتهم.

ثمّ مناظرته للمخالفين في سنة خمس وسبعمائة في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم، وظهوره عليهم بالحجّة والبرهان، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومُكرَهين[2].

لقد كان دورُه في انتصار دولة المماليك على التتار اليدَ الطولى التي لا تنكر، ودلّ أنه في السياسة كما هو في الدّين إمامٌ عظيم، وأنّ الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره، وما سمع لأحدٍ من علماء الدّين في عصره صوتٌ مثل صوته في إحقاق الحقّ ونصرة سلطان الإسلام، ولم يرضَ يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلّى عن الأسرى من النصارى واليهود فقال: إنهم ذمّتنا ولا بدّ من إرجاعهم إلى ديارهم[3].

لقد عانى ابن تيمية كثيرًا مِن لجوء المخالفين له في الرأي إلى الحكام مُختلقين الأسبابَ من أجل المَساس به حسدًا وحقدًا، وتسبّبوا في سجْنه عدّة مرّات حتى توفي وهو في سجنه- رحمه الله- وما ذلك إلّا لأنه رفض استمرارَ المجتمع في البدع، واستمراءهم للخرافات، فواجههم بالردّ والحجّة، مُستعينًا بالله - عز وجل - موضّحًا رأي السلف والسنة والصحابة - رضي الله عنهم - في هذه الآراء، ولعلّ مسألة شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين خيرُ دليلٍ على ذلك.

لقد عاش الشيخ عمرًا حافلا بالعلم والمعرفة، وزاخرًا بالجهاد بشتّى صنوفه، صابرًا مُحتسبًا حياتَه لها، مُفعمة بالنّور والحياة؛ فرحَمَهُ الله رحمةً واسعة، وجزاه عنِ الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

---

(١) شقحب: قرية في جنوب غرب دمشق تبعد عنها ٢٥ ميلًا وكانت بها معركة بين التتار وأهل الشام.
(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢١-٢٣).
(٣) السابق، ص(٣٢، ٣٣).

المبحثُ الثّاني

عصرُ ابن تيمية

إنّ للعصر تأثيرًا بالغًا على العالم الذي تربّى فيه، فقد يؤدي فسادُ العصر إلى فساد الرّجل، وقد يكون التأثير عكسيًّا، فكثرة الفساد تحمل على التفكير الجدّي في الإصلاح، وكثرة الشرّ تحمل على حفْز العزائم لنشر الخير، وقد تكون من الدوافع المهمّة التي تبثّ في نفس المصلح اقتلاعَ الشرّ ومحاربته، وهذا هو حال ابن تيمية مع عصره، فقد نفذت روحه ممّا درس في حياته، وما عكف عليه في كهولته وشيخوخته من الرجوع إلى ينابيع الشّرع الأولى، وكنوز السنة النبوية المشرفة، وما كان عليه سلف المؤمنين، فاستطاع أن يقارن بين ما درس من الإسلام من النور الساطع وبين هذا الظلام الدامي في هذا العصر، والفساد الشديد في كلّ نواحي الحياة، يرى في الإسلام عزًّا واتحادًا، ويرى في عصره ذلًّا وانكسارًا وانقسامًا، يرى في الماضي حكمًا صالحًا، وأمور المسلمين شورى بينهم، ويرى في حاضره استبدادًا وطغيانًا، وقد أكل القوي الضعيف، واستمرأ الحاكم لحمَ المحكوم ومالَه، لذا تقدّم شيخ الإسلام ابن تيمية ليصلح ويداوي، وقد وجد الدواء في كتاب الله وسنة رسوله، وأعمالِ الصحابة وكبار التابعين، فكانت آراؤه العلمية دواءً لهذا العصر، ولو فتّشت عن البواعث التي بعثته على الجهر بكلّ ما جهر به؛ لوجدت أنّ الباعث على المجاهرة عيبٌ في الزمان، وفساد أهل العصر في العمل أو الفكر أو فيهما معًا[1].

ويمكن أنْ نتناول ملامح العصر الذي عاش فيه ابن تيمية من خلال الحالات الآتية:

- **الحالة السياسيّة:**

انقسم الناسُ في هذا العصر (السابع والثامن من الهجرة) إلى دويلاتٍ صغيرة، يحكمها مجموعةٌ من المماليك، جاءوا بعد الدولة الأيوبيّة، وانتهت بدخول الجيوش العثمانية، ولقد كانت المنافسة بين هؤلاء الحكام على أشدّها، وكانت المنازعات على المصالح والمنافع تبلغ ذروتها،

(١) انظر: ابن تيمية، حياته وعصره وآراؤه الفقهية، للعلامة محمد أبي زهرة، ص(١٠٥)، ط: دار الفكر، ١٩٩١م.

وأخذوا يتسلّطون على الضعفاء من عامّة الشعب، غير خاضعين لسلطان الخلافة في بغداد؛ لأنّها لم تكن قويّة بالقدر الذي تستطيع فيه إخضاع هؤلاء الحكام لها، وذلك لضعف خلفاء بني العباس وانشغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات، فقد خرج عن بني العباس بلادُ المغرب، ملَكَها بعضُ مَن بقي مِن بني أمية مِن ذرية عبد الرحمن بن معاوية، والدولة الفاطمية ببلاد مصر، وبعض بلاد المعرب، وبلاد الشام، وبلاد الحرمين، وكذلك خرجت خراسان وما وراء النهر، وتداولتها الملوك دولًا بعدَ دولٍ حتى لم يبقَ للخليفة فيهم إلّا بغداد وبعض بلاد العراق، واستمرت دولة الفاطميّين قريبًا من ثلاثمائة سنة، وكان آخر خلفاء بني العباس عبد الله المعتصم[1].

٢- أدى هذا الانقسام والضّعف إلى طمع أعداء الإسلام من التتار والذين أقبلوا من الشرق، والفرنجة من الغرب يعيثون في البلاد فسادًا، يقول ابن الأثير في ذلك: «لقد بلي الإسلامُ والمسلمون في تلك الأزمان بمصائب لم يبْتَلِ بها أحدٌ من الأمم.

منها: ظهور التتار- قبّحهم الله، أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كلّ مَن سمع بها.

ومنها: خروج الفرنج من المغرب إلى الشام، ومقصدهم ديار مصر وغيرها أنْ يملكوها، لولا لطف الله- تعالى- ونصره عليهم.

ومنها: أنّ السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة»[2].

ولقد أشارَ ابن تيمية إلى أسباب هذه الحروب الصليبية في كتاباته، فقال: «فلمّا ظهر النّفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول؛ سُلّطَت عليهم الأعداء، فخرجت الرّوم النّصارى إلى الشام والجزيرة مرّة بعد مرّة، وأخذوا الثغور الشاميّة شيئًا فشيئًا، إلى أنْ أخذوا بيت المقدس...

(١) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٣٩).
(٢) الكامل في التاريخ، (٩/ ٣٣).

وبعد هذا بمدّة حاصروا دمشق، وكان أهلُ الشام بأسوأ حال، بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة»[1].

ولعلّ خيرَ ما يوصف به هذا العصر قولُ النبي ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القومُ على قصعتهم**». **قيل: مِن قلّة؟ قال: «لا، ولكنّه غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم بحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت**»[2].

٣- يظهر، أيضًا، في هذا العصر موالاة أهل الذمّة للأعداء أيًّا ما كان لونهم، بل كان مِن الفِرق الإسلامية مَن يمهّد السبيل للتتار؛ يقول ابن تيمية واصفًا تحزّب هذا العدو مِن مغولٍ وغيرهم مِن أنواع الترك ومِن فرس مستعرب ونحوهم من أجناس المرتدّة مِن نصارى الأرض وغيرهم: «ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، ومقصودُهُم الاستيلاءُ على الدار واصطلام أهلها»[3].

٤- لقد كان لوحشيّة التتار في هذا العصر مظهرٌ بارز، لوَّن هذا العصر وميّزه عن باقي العصور؛ لأنه كان مِن أفظع المصائب التي جرتْ على الأمّة الإسلامية، يقول ابن الأثير واصفًا وحشيّة التتار: «لقد بقيت عدّة سنين معرضًا عن ذكْر هذه الحادثة؛ استعظامًا لها، كارهًا لذكْرها، وها أنا ذا أقدّم إليها رِجْلًا وأؤخّر أخرى، فمَن الذي يسهل عليه أن يكتبَ نعي الإسلام والمسلمين، ومَن الذي يهون عليه ذكرُ ذلك، فيا ليتَ أمّي لم تلدْني، ويا ليتني متّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا! إلى أن حثّني جماعةٌ من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقّف، ورأيت أن تركَ ذلك لا يجدي نفعًا»[4].

---

(١) الفتاوى، (١٣/ ١٧٣).

(٢) شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، (٧/ ٢٩٧)، وجامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي، (٢٤/ ٢٨١)، وأخرجه البزار كما في مجمع الزوائد، (٨/ ٢٩١)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن يحيى الأودي وهو ثقة، وأخرجه الطبراني، (٢/ ٢١٥)، رقم(١٨٨٠).

(٣) الفتاوى، (٢٨/ ٤٤).

(٤) الكامل في التاريخ، (١٠/ ٣٩٩).

لقد جاء هؤلاء التتار بقيادة جنكيز خان بكلّ ما يملكون من وحشيّة وتعطّش لسفك الدّماء ونهب الأموال، وتخريب الديار، ولم يزل خطر هؤلاء التتار يزداد وتسقط المدن في أيديهم حتى سقطت بغداد سنة٦٥٦ هـ، وقُتل الخليفةُ المستعصم[١].

ثمّ دخلت سنة سبع عشرة وستمائة، في هذه السنة عمّ البلاء وعظُمَ العزاء بجنكيز خان المسمّى بتموجين- لعنه الله تعالى-، ومَن معَه من التتار- قبّحهم الله أجمعين، واستفحل أمرُهم واشتدّ إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أنْ وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربيل[٢] وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة- وهي هذه السنة- سائرَ الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميعَ الطوائف التي بتلك النواحي...، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعدّدةٍ كبارٍ ما لا يُحدّ ولا يوصف، وبالجملة فلَمْ يدخلوا بلدًا إلّا قتلوا جميعَ مَن فيه مِن المقاتلة والرّجال، وكثيرًا مِن النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنّهب إنِ احتاجوا إليه، وبالحريق إنْ لم يحتاجوا إليه، حتى إنّهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمْله فيطلقون فيه النار وهُم ينظرون إليه، ويخرّبون المنازل وما عجزوا عن تخريبه؛ يحرقونه، وأكثر ما يحرقون المساجدُ والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإنْ لم ينصحوا في القتال قتلوهم[٣].

لقد كان التتار يعبدون الشمس، ولا يحرّمون شيئًا، ويصف ابن كثير[٤] سقوطَ بغداد في يدِ التتار، وحالَ هذه المدينة وهي في أيديهم، فيقول: «ولمّا انقضى الأمر المقدّر وانقضت الأربعون

(١) انظر: حوادث سنة ٦٥٦ من البداية والنهاية، (٢/ ٢٠٤٣)، طبعة بيت الأفكار الدولية، والوافي بالوفيات، (٢٧/ ٢٣٣).

(٢) مدينة أربل: اسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام. (معجم البلدان ١/ ١٣٩).

(٣) البداية والنهاية، (١٣/ ١٠٣).

(٤) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصروي الشيخ عماد الدين ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير، ومات أبوه سنة ٧٠٣، ونشأ هو بدمشق وسمع مِن ابن الشحنة وابن الزراد وإسحاق الآمدي وابن عساكر والمزي وابن الرضي، وطائفة وأجاز له من مصر الدبوسي والواني والختني وغيرهم، واشتغل بالحديث مطالعةً في متونه ورجاله فجمع التفسير وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وله تصانيف مُفيدة، مات في شعبان سنة ٧٧٤ه، وكان قد أضرّ في أواخر عمره. راجع: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ٤٤٦).

يومًا، بقيت بغداد خاويةً على عروشها ليس بها أحدٌ إلا الشاذّ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيّرت صورهم وأنتنت مِن جيفهم البلد، وتغيّر الهواء فحصل بسببه الوباءُ الشديد حتى تعدّى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلقٌ كثير من تغيّر الجوّ وفسادِ الريح، فاجتمع على الناس الغلاءُ والوباء والفناء والطّعن والطّاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

ويصف ابن الأثير في كتابه الكامل هذا الاعتداءَ من التتار فيقول: «هذا فصل يتضمّن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمتِ الليالي والأيام عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إنّ العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإنّ التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا يدانيها، ومِن أعظم ما يذكرون مِن الحوادث ما فعلَ بُخْتنصر[2] ببني إسرائيل مِن القتل، وتخريب بيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء المَلاعين من البلاد، التي كلّ مدينةٍ منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة لما قتلوا، فإنّ أهل مدينةٍ واحدة ممّن قتلوا أكثرُ من بني إسرائيل، ولعلّ الخلائق لا يروْن مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنَى الدنيا إلّا يأجوج ومأجوج[3]، وأمّا الدّجال فإنه يُبقي على مَن اتّبعه، ويهلك مَن خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقّوا بطونَ الحوامل، وقتلوا الأجنّة.

فإنّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررُها، وعمّ ضررُها، وسارت في البلاد كالسّحاب استدبَرته الرّيح، فإنّ قومًا خرجوا مِن أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان.. ثمّ منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى

(١) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٣٦).

(٢) بخت نصر: رجل سلطه الله على اليهود فقتلهم بعد قتل اليهود ليحيى بن زكريا عليه السلام، ودخل المسجد الأقصى واستولى عليه، وقيل أيضًا لمّا كثرت ذنوب بني إسرائيل سلّط عليهم بخت نصر فقتل منهم عددًا كبيرًا واستولى على بيت المقدس، وهذه هي الكَرّة الأولى، ثمّ تأتي الكَرّة الثانية في آخر الزمان، البداية والنهاية: ١٣/ ١٠٣.

(٣) مأجوج: قبيلة همجيّة يقرن اسمها بـ (يأجوج)، وهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح، وقد بنى ذو القرنين سَدًّا حجزهم وراءه. - يأجوج: قبيلة همجيّة، بنى ذو القرنين سدًّا لمنع شرورها عن جيرانها.

وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهْلها ما نذكره، ثمّ تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكًا، وتخريبًا وقتلًا ونهبًا، ثمّ يجاوزونها إلى الرّي وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حدّ العراق، ثمّ يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخرّبونه، ويقتلون أكثرَ أهلها، ولم ينجُ منهم إلا الشريد النادر في أقلّ من سنة.

• **هذا ما لم يُسمَع بمثله.**

ثمّ ساروا إلى دربند شرْوان فملكوا مدنَه، ولم يسلم غير قلعته التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان، [و] اللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلًا ونهبًا وتخريبًا... وهُم مِن أكثر التّرك عددًا، فقتلوا كلّ مَن وقف لهم وهربَ الباقون إلى الغياض وملكوا عليهم بلادهم، وسارت طائفةٌ أخرى إلى غزنة[1] وأعمالها، وما يجاورْها مِن بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثلَ أفعال هؤلاء وأشدّ، هذا ما لم يطرقِ الأسماعَ مثلُه؛ فإنّ الإسكندر الذي اتّفق المؤرّخون على أنه ملَكَ الدنيا لم يملكها في سنة واحدة، إنّما ملكها في نحْو عشر سنين، ولم يقتل أحدًا، بل رضي من الناس بالطّاعة، وهؤلاء قد ملَكوا أكثرَ المعْمور من الأرض وأطيبَه وأحسنَه عمارة، وأكثرَه أهلًا وأعدلَهم أخلاقًا وسيرةً في نحو سنة، ولم يتّفق لأحدٍ مِن أهل البلاد التي لم يطرقوها بقاء إلّا وهو خائف مترقّب وصولَهم، وهُم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرّمون شيئًا، ويأكلون ما وجدوه مِن الحيوانات والميتات- لعنهم الله تعالى.

قال: وإنّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع؛ لأنّ السلطان خوارزم شاه محمدًا كان قد قتل الملوك مِن سائر الممالك واستقرّ في الأمور، فلمّا انهزم منهم في العام الماضي وضعفَ عنهم وساقوا وراءه فهرب فلا يدرى أين ذهب، وهلك في بعض جزائر البحر، خلت البلاد ولم يبقَ لها مَن يحميها ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وإلى الله ترجع الأمور»[2].

---

(١) غزنة: بفتح أوله وسكون ثانيه ثمّ نون هكذا يتلفظ بها العامّة، والصحيحُ عند العلماء غزنيّين ويعربونها فيقولون جزنة، وهي مدينة عظيمة وولايةٌ واسعة في طرف خاراسان، وهي الحدّ بين خاراسان والهند في طريق فيه خيراتٌ واسعة، وهي شديدة البرودة. (معجم البلدان ٢٠١/ ٤).

(٢) البداية والنهاية، (١٣/ ١٠٣)، وابن تيمية لأبي زهرة، ص(١١٢، ١١٣).

لقد خرجت الخلافة مِن بغداد، ثمّ استمرّ التتار في عدوانهم على البلاد، وذهبوا إلى دمشق سنة ٦٥٨هـ، واستولوا عليها قاصدين مصر، فكانت نهايتهم، وانتصر المسلمون عليهم بقيادة قطز سنة ٦٥٨هـ، فقتلوهم وشرّدوهم وأسروا منهم أعدادًا كبيرة، وواصل الجيشُ المصري انتصاراتِه عليهم، فأجْلاهم عن دمشق ثمّ عن سوريا والثّغور بقيادة الظاهر بيبرس، فانكسرت شوكةُ التّتار بفضل الله تعالى ورحمته[١].

وكانت حوادث التتار قبل ميلاد ابن تيمية وواقعة عين جالوت بنحو ثلاث سنين، حيث كانت سنة ٦٥٨هـ، وميلاده كان سنة ٦٦١هـ، ولقد أعاد الظاهر بيبرس الخلافة الإسلامية لبني العبس بعد أن استمرّ ذلك المنصب شاغرًا ثلاث سنوات، بعد قتل الخليفة العباسي، وجعل القاهرة مستقرًّا له ومقامًا[٢].

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية والخطرُ الصليبي في نهايته، وذلك سنة تسعين وستمائة للهجرة، أمّا الخطر التّتري فقد عاينه شيخ الإسلام ابن تيمية وعائلته وعانى منه الأمَرّين؛ حيث اضطرّوا للهجرة من بلدهم بسبب هجوم التتار المتكرّر عليها، وتخريبهم لها، فهُم قد انسابوا مِن المشرق فما مرّوا على بلدة إلّا جعلوها كالرميم، لا يبقون من معالم الحضارة في البلاد التي مرّوا عليها شيئًا[٣].

ويقول ابن تيمية معرّفًا تلك الحادثة الخطيرة: «ينبغي للعاقل أن يعتبر سنة الله وآياته في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم، لاسيّما في هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شرّها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشّر فيها الكفر عنْ أنيابه وأضراسه، وكادَ فيه عمود الكتاب أن يجتث ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحلّ بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظنّ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ أنْ ما وعدهم الله ورسوله إلّا غرورًا، وأن لنْ ينقلب حزبُ الله ورسوله

(١) البداية والنهاية، (٢/ ٢٠٥٢)، ط: بيت الأفكار الدولية.
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٦).
(٣) البداية والنهاية، (٣/ ٣٣٨).

إلى أهليهم أبدًا، وزيّن ذلك في قلوبهم، وظنّوا ظنّ السوء، وكانوا قومًا بورًا، ونزلت فتنة تركت الحليمَ فيها حيرانًا، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السّكران، وتركت الرجل اللبيب- لكثرة الوسواس- ليس بالنّائم ولا باليقظان، وتناكرت فيها قلوبُ المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغلٌ عن أن يغيث اللّهفان، وميّز الله فيها أهل البصائر والإتقان مِن الذين في قلوبهم مرضٌ أو نفاق وضعفُ إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية كما خفضَ بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامةً مختصرة من القيامة الكبرى»[1].

وهكذا استقرّ في وعي ابن تيمية الفظائع الوحشية التي قام بها التتار في كلّ مكان، قال: «وعندما كان قدْ قارب سبع سنين شنّ التتار حملةً على مسقط رأسه حران في شمال سورية، بين دجلة والفرات، ولقد خرجت أسرته شأنَ الأسرِ الكثيرة من حران فرارًا من فظائع التتار وتوجّهت إلى دمشق، ولكنّ ابن تيمية وَعَى بعد ذلك انتصارَ المسلمين في عين جالوت الذي وقع قبل مولده بثلاث سنين، كما أنّ فتوح الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديثَ صباه وسميرَ المجالس في ذلك العصر»[2].

وعاش ابن تيمية في عصر الدولة المملوكيّة الأولى التي كانت مصر والشام تحت سلطانها، وعاصر ابن تيمية السلطان الناصر الذي جاء بعد الظاهر، وابتلي بمجيء التتار إلى دمشق، ولكن تصدّى لهم الناصر بتحريض ابن تيمية ومعاونته، حيث قام بحثّ الناسِ على الجهاد وحمل السلاح خارجًا إلى ميدان الجهاد، وقادَ الجيش[3].

- **الحالة الاجتماعيّة:**

شهدَ ابنُ تيمية مجتمعًا تمازجت مكوّناته من عناصر مختلفة، وأجناس مُتباينة، فهناك مُخلّفات الحروب الصليبيّة؛ حيث امتزج الشّرق بالغرب، وتلاقت الحضارات والدّيانات والعادات

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٧).
(٢) رجال الفكر والدعوة، للأستاذ الندوي، تعريب سعيد الأعظمي، تقديم الدكتور عدنان زرزور، ط: دار القلم، دمشق، ط: أولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، (٢/ ٨).
(٣) البداية والنهاية، (٢/ ٢٠٥٩).

والأفكار، على الرغم مِن المحاربة، فالعدوى النفسية سارية، وكذلك في حروب التّتار التقت الأقوامُ من أقْصى الشرق في الصين حاملين عاداتهم وأخلاقهم وأهواءهم ومنازعهم بأهلِ الإسلام الذين اعْتدلت أمزجتهم وأفكارهم واستقامت عقائدهم، وهُم خاضعون لنُظم مقرّرةٍ ثابتة، استنبطها العلماءُ مِن كتاب الله الهادي إلى سواء السبيل، وسنة النبي المُبيّنة لأقوم منهاجٍ مستقيم، التقى هؤلاء وهؤلاء فكان ذلك اللّقاء اضطرابًا في العادات والمنازع[1].

لقد خلطت الحربُ القاسية- أيضًا- بين أصناف المسلمين في الأمصار المختلفة، فأهلُ العراق يفرّون إلى الشام عندما يُغير التتار عليهم، وأهلُ الموصل وما حولها يفرّون إلى دمشق، وأهلُ دمشق ينتقلون إلى مصر، بل إلى بلاد المغرب، فقد خرج علماءُ دمشق وولاتُها والقادرون فيها عندما ساوَرَها التتار، وبقي ابن تيمية مع الضعفاء من العامّة، ومَن لا حول لهم ولا قوّة، وهذه الخلطة الإجبارية تؤدي إلى خلطةٍ فكرية ونفسية واجتماعية، ويتكوّن منها مجتمعٌ مضطرب ليس فيه قرار ولا سكون[2].

لقد بدا هذا جليًّا في مصرَ التي كانت مثابة كلّ هذه الأجناس، فهذا الاضطراب السّياسي الذي كان سببُه طمعَ المماليك والصراع بيْنهم على الحكم أدّى إلى اضطراب اجتماعي واضح.

ولقد كان للأسرى الفِرنج والتّتر شأنٌ في الحياة الاجتماعية؛ لأنّهم مثّلوا طبقة لا تندمج مع الشعوب كما كانت الوظائف والإمارات وقيادةُ الجيش تحت سيطرتهم، خاصّة مع المماليك الذين أسروا أو اشترتهم الدّولة الأيوبية، ثمّ آل المُلك إليهم.

ولقد كان لهؤلاء الطوائف خيطٌ يجمع بينهم، وهو أنّهم كلّهم أسرى أو كلّهم مماليك، فانتشر بينهم الحقدُ والتّنافس وحبّ السيطرة على الناس والتعالي عليهم، والحرص على مصلحتهم الخاصة، وكذلك الوافدون انتشروا في البلاد، وكان لهم من التقاليد والعادات التي انتشرت معهم، وحتى عندما دخل التتار في الإسلام كانوا يطبّقون أحكام جنكيز خان والاقتداء بحكم الياسة[3].

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٢٧).

(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٢٥، ١٢٦)، ورجال الفكر والدعوة، ص(٢٣، ٢٤).

(٣) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٨-٤٠) بتصرف، وسير أعلام النبلاء، ط الرسالة، (٢٢/ ٢٢٨)، والياسة: هي شريعةُ المغول وقانونهم.

كان حكامُ المماليك دائما يشعرون بالأفضلية، ويتكلّمون بالتركية فيما بينهم، ما عدا بعض المناسبات أو خطابهم مع العلماء أو الحديث مع الجماهير، وكانوا مع ذلك يقدّرون العلماء، ويحبّون المشايخ، ويقبلون على بناء المساجد، وتأسيس المدارس، لم يكونوا يتحيّزون في تقسيم المناصب إلى فئةٍ دون فئة، أو جنسٍ دون جنس، إلّا أنّ المناصب الإدارية والعسكرية كانت ملكًا لهم، وقد كان المماليك والتّتار هُم أصحاب الإقطاعات، وكان دورُهم في استغلال المزارعين والعمال، وفرض الضرائب؛ واضحًا.

كما كان طبيعيًّا- وهذا نظامُ المجتمع؛ حيث الحروب المتوالية من غارات الفرنجة والتتار والتّطاحن على السلطة- أن تضطرب حالةُ الأمن في البلاد، وينتشر الفزع، ويختفي الاستقرار الاجتماعي، ويكون تابعًا لذلك كسادٌ في الحياة الزراعية والتجارية والاقتصادية، ومن مظاهر ذلك نقص المحاصيل والغلاء والفقر الشديد.

ولقد أشار ابن تيمية إلى ذلك من انتشار الثلوج الشديدة التي أثّرت على المحاصيل.

وأيضًا تلا ذلك غارات التتار وتساقط الجثث، وانتشار الأوبئة والأمراض.

كما ظهرت- أيضًا- عادة تطفيف المكاييل، والغشّ في البيع، واضطرّ شيخ الإسلام أن يكتب كتاب الحِسبة في الإسلام؛ ليحضّ فيه ولاة أمور المسلمين والمُحتسبين على متابعة أمورِ ومصالح جماعة المسلمين، وإنزال العقوبة الرّادعة بالمفسدين في الأرض، وفرض تسعيرات تحفظ للناس أرزاقهم وأقواتهم[1].

كما نتجَ عن اختلاف المجتمع أنْ تتأثر الحالة الدينية وتختلط الأفكار، وتظهر الحركات والتوجّهات، والفلسفات المختلفة، بدا ذلك ظاهرًا في كتب شيخ الإسلام عن الفرق الباطنية[2] والمتصوفة، وديانات التّتار والنصارى، وانتشار البدع والخرافات التي وقف العلماء ورجال

(١) رجال الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ط: دار القلم، دمشق، ص(٢٨، ٢٩) بتصرف.
(٢) الباطنية: هي فرقةٌ من فرق القرامطة انتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر، وسبب تسميتهم بالباطنية أنهم ادّعوا أنّ لظواهر القرآن وللأخبار باطنًا، وغرضهم من ذلك إبطال الشرائع، وهُم فرقة من فرق الشيعة. (الفرق الإسلامية جـ٦ صـ٢١،٢٠) (الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٩٠).

الدين على اختلاف مذاهبهم لها بالمرصاد، كلّ يحاول أن يزيل الغشاوة عن المجتمع بطريقته، كما أدى هذا الاختلاف إلى انتشار المذهبية والتعصب والتقليد، ومثال هذا الاختلاف في ديانات التّتار، فقد كان منهم مَن يعبد الشمس، ولا يحرّمون شيئًا، ويتجاوزون الحدّ في المنكرات، ويأكلون الميتة وتظهر الوحشية في القتل وسفْك الدّماء، كما أنّ المرأة حقّها ضائعٌ بينهم، فهي ملك مُشاع للرجال، وإذا جاء الولد لا يُنسَب إلى أحد، حتى بعد دخولهم الإسلام «نجد أنّهم لقّنوا القرآن، وعرفوا أحكام الملّة المسلمة، لكنهم جمعوا بين الجيد والرّديء، وفوّضوا إلى قاضي القضاة كلّ ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وأناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية وكتداعي الزوجين وأبواب الدين، ونحو ذلك، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع إلى عادة جنكيز خان، والاقتداء بحكم الياسة»[1].

كما أنّ النصارى غالبًا كانوا يميلون إلى أعداء المسلمين، ويستميلونهم، كما حدث أيامَ غزو الفرنجة؛ حيث ذهب النصارى إليهم يستميلونهم، ومالؤوا التتار وكاتبوهم، يقول المقريزي في حوادث سنة ٦٥٨هـ: واستطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانًا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان، ورشّوه على ثياب المسلمين في الطرقات، وصبّوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مرّوا بالصليب عليهم، وأهانوا مَن امتنع عنِ القيام للصليب، وصاروا يمرّون به في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا: ظهر الدّينُ الصحيح.. دين المسيح. فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرَهم لنائب هولاكو وهو «كتبغا» فأهانهم وضرب بعضهم، وعظّم قدرَ قساوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم»[2].

ويقول ابن كثير: «وذهب طائفةٌ من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتُحفًا وقدموا مِن عنده ومعهم أمان فرمان مِن جهته، ودخلوا مِن باب توما ومعهم صليبٌ منصوب

(١) ابن تيمية محدثًا، د/ أحمد محمد العليمي، دار ابن حزم، ط: أولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، ص(٣٧) بتصرف.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، (١/ ١٤٠).

يحملونه على رءوس الناس، وهُم ينادون بشعارهم، ويقولون: ظهرَ الدين الصحيح.. دينُ المسيح، ويذمّون دين الإسلام وأهلَه، ومعهم أواني فيها خمر، لا يمرّون على بابِ مسجد إلّا رشّوا عنده خمرًا، وقماقم ملآنة خمرًا يرشّون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كلّ مَن يجتازون به في الأزقّة والأسواق أن يقومَ لصليبهم»[1].

• **الفرقُ الباطنية:**

تحدث شيخُ الإسلام ابن تيمية عنهم في رسالته إلى الملك الناصر، وقد دعا إلى محاربتهم؛ لأنّهم من أهل البدع والمنكرات، وأنّهم مارقون عن الإسلام، مفارقون للشريعة والطاعة، ومثل هؤلاء مِن أهل الجبل والكسروان فهُم مِن أكابر المفسدين في الدّين والدنيا، باعتقادهم أنّ أبا بكر وعمر وعثمان وأهل بدر وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان وأئمة الإسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ومشايخ الإسلام وعبادهم وملوك المسلمين وأجنادهم وعوام المسلمين وأفرادهم؛ كلّ هؤلاء عندهم كفّار مرتدّون، أكفرُ مِن اليهود والنصارى؛ لأنهم مرتدّون عندهم، والمرتدّ شرّ من الكافر الأصلي، ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان، ولهذا لمّا قدِمَ التتار إلى البلاد وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص، فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عددَه إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يومًا يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص وفرحوا بمجيء التتار..... ولمّا خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولمّا نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزاء، كلّ هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد، وفي قدومه الى حلب، وفي نهْب الصالحية، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله»[2].

---

(١) البداية والنهاية، (١٣/ ٢١٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، (٢٨/ ٤٠٠، ٤٠١)، وانظر: إغاثة الغريق وإنارة الطريق إجابات لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٥)، ولمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٥٣).

كما يقول- رحمه الله: «ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمرٍ لا يضبط سرّه. كلّ ليلة ينزل عليهم منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلّا ربّ العباد، وكانوا في قطع الطرقات، وإخافة سكّان البيوتات على أقبح سيرةٍ عُرفت مِن أهل الخيانات، ترد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم، ويعطونهم سلاح المسلمين، ويقعون بالرجل الصالح من المؤمنين، فإمّا أن يقتلوه أو يسلبوه، وقليل مَن تفلّت منهم بالحيلة»[1].

لقد احتكر المماليكُ الأرض، وكانت عامّة الناس من صنّاع وزرّاع يعملون عندهم كادحين، والحصاد لذوي السلطان دونَ غيرهم، كما كانت طبقة أهل الدين الطبقة الثانية في المجتمع؛ لمكانة الدين، لهم منازل خاصة، ولهم الطاعة في شئون الدين، ولا تتعرّض سلطتهم للمخالفة، إلّا عندما يقفون أمام السلطان أو ضرائبه، كما فعل الظاهر مع النووي[2]، فقد كان لا يهمّ السلاطين إلّا المال؛ حيث يحتالون عليه بكلّ الحيل، فالظاهر بيبرس يفرض الضرائب الكثيرة، ويحاول إخراج الأرض من أيدي أهلها، ويقف أمامه النووي - رحمه الله - معترضًا في الأمرين، وكان يضعف سلطان رجال الدين أن معيشتهم ممّا يفيض بها الوالي عليهم من بيت المال، ومنهم من كانت تنزله الحاجة أو حبّ المال والطمع إلى ما لا يليق بالعلماء»[3].

• **الحالةُ العلمية:**

كان للناحية السياسية وما زخرتْ به من اضطرابات ومنازعات، وما توالى على الأمّة من حروب طاحنة؛ أثرُه- أيضًا- على الحركة العلمية؛ فقلّ الإنتاج العلمي المبني على الفكْر والتحليل والمقارنة، وكثُرَ الإنتاج العلمي المبني على الجمع والتصنيف للكتب القديمة في كلّ مذهب عدّة مرّات.

---

(١) رسالة من ابن تيمية إلى الملك الناصر، ص(٥)، ومجموع الفتاوى، (٢٨/ ٤٠٣)، ولمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٥٥).

(٢) هو الشيخ محيي الدين يحيى بن شرف، عالم بالفتوى، له كتب كثيرة منها الأذكار للنووي ورقائق النووي وله كتاب المنهاج. راجع: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ١/ ١٦٦)، الوافي بالوفيات ١/ ٣٦٤م.

(٣) ابن تيمية، حياته وعصره، ص(١٢٨).

واتّسم العلم والتأليف في هذا القرن بالسّعة وقلّة التعمّق، ويغلب طبع النّقل والاقتباس على التفكير والدّراسة والتعمّق في العلم، باستثناء عددٍ من الشخصيات والمآثر العلمية[1].

يقول الأستاذ هرّاس: «لقد قلّ الإنتاج العلمي، وركدت الأذهان، وأقفل بابُ الاجتهاد في الأصول والفروع جميعًا، فحرم الأخذُ من الأصول بغير المذهب الأشعري، وفي الفروع بغير مذاهب الأئمة الأربعة، وأصبح قصارى جهْد العالم أن يفهم ما قيل مِن غير بحثٍ ولا مناقشة، وعمد العلماء إلى جمع المعلومات المتعلّقة بكلّ فنّ فنظموها في سلكٍ واحد، وألّفوا فيها كتبًا مطوّلة أحيانًا، ومختصرة أحيانًا، وسلكوا منهجًا حسنًا في التأليف، ولكنْ لا أثر فيه للابتكار والتجديد.

وغلبت على العلماء في هذا العصر نزعة التقليد، وسيطر الجمود الفكري، وأصبح العالم إنما يُقاس بكثرة ما حفظ من كلام الأولين، وعرف من آرائهم، وإن لم يكن له من استقلال الفكر، وحرية الرأي أدنى نصيب؛ بحيث يمكن تسمية هذا العصر (عصر دوائر المعارف)»[2].

وتكوّنت للمذاهب الفقهية قوالبُ من حديد؛ لا تقبل المرونة والتسامح، وإن كان القول السائد: إنّ الحقّ دائرٌ بين المذاهب الأربعة، ولكن أتباع كلّ مذهب يحصرون الحقّ في مذهبهم في الواقع، ولا يزيدون- إذا توسّعوا- كثيرًا على أنْ يقولوا: رأي إمامنا صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتملُ الصواب.

لقد كان أتباع كلّ مذهب يرجّحون مذهبهم الفقهي على سائر المذاهب الفقهية الأخرى، ويعتبرونه مقبولًا ومؤيّدًا من الله، وكانوا يبذلون كلّ ذكائهم، وقوةَ بيانهم وتأليفهم في ترجيحه وتفضيله على غيره.

أمّا النظرة التي كان أتباع المذاهب ينظرون بها إلى مذاهبهم العقلية التي كانت تسودُ على أهلها؛ فيمكنُ تقدير ذلك بأنّ الملك «الظاهر بيبرس» لمّا نصّب لكلّ مذهب قاضيًا للقضاة

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٤).

(٢) ابن تيمية السلفي، نقده لمسائل المتكلمين والفلاسفة في الألوهيات، محمد خليل هراس، ط: أولى، ١٣٨٧هـ- ١٩٥٢م، ص(١٧).

خاصًّا به خلافًا للعادة المتّبعة في زمنه، وهي ألّا يكون قاضي القضاة إلّا شافعيًّا؛ استنكرَ ذلك فقهاء الشافعية؛ إذْ كانوا لا يرضون إلّا أن يروا مصر خاضعة للقاضي الشافعي؛ لأنها مدفن الإمام الشافعي، ولمّا انتهى حكم الملك الظاهر، وانتقلت المملكة من أسرته إلى غيره، رأى ذلك بعضُ الشافعية نقمةً إلهيّة، وعقابًا لفعلته التي فعلها[1].

وقد كان التعصّب الكلامي مع التحزّب الفقهي بالغًا مداه، بينما أتباع المذاهب الأربعة تلاميذ وشيوخًا؛ يتبادلون الحبّ والزيارة، غير أنّ اتحاد الأشاعرة مع الحنابلة كان شبهَ مستحيل؛ لأنهما كانا يختلفان في الفكْر والإسلام، وليس على الأفضلية؛ فقد كانت كلّ طائفة تُلحّ على تكفير الأخرى، وكانت المباحث الاعتقادية وتقعّر المتكلمين، يتغلّب على جميع المباحث الأخرى، حتى إنّ الأشاعرة كانوا يعتبرون الحنابلة قرناء للنّصارى، وقد كتب منشئ المدرسة الرواسية في دمشق في حجّة وقفيّة هذه المدرسة نصًّا يمنع دخولَ اليهود والنصارى والحنابلة لهذه المدرسة[2].

«وعلى الرّغم من ذلك الجمود في التأليف؛ إلا أنّ العلم كان في انتشار مستمرّ؛ فقد وجدت مدارس كبيرة، ودورٌ للحديث، تلك التي أسّسها الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، وكان يؤمّها الطلاب من أنحاء العالم؛ لتلقي العلوم الدينية والتجريبية، وكانت مكتباتٌ كبيرة تابعة لهذه المدارس، وأخرى مستقلّة بذاتها تحتوي على ذخائر علمية، ونوادر في كلّ علم وفن، ولا يوصد بابُها عن أيّ دارس، ولقد كانت المكتبة التابعة للمدرسة الكاملية- التي أسسها (الكامل محمد الأيوبي) سنة ٦٢١هـ- تحتوي وحدها على مائة ألفِ كتاب»[3].

كما توفّرت دورٌ كثيرة لتدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأيضًا مدارس للحنفية والشافعية، وأخرى للمالكية والحنابلة[4].

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٣).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣١).
(٣) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٢، ٤٣).
(٤) ابن تيمية محدثًا: (٤٦).

كما نهض في أوساط هذا القرن أئمةٌ كبار، كالعلامة تقي الدين أبي عمرو بن الصلاح (٤٦٣-٥٧٧هـ)، وشيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام (٥٧٨-٦٦٠هـ)، والإمام محيي الدين النووي (٦٣١-٦٧٦هـ).

وظهر في أواخر هذا القرن علماء كبار، مثل المحدّث الكبير تقي الدين بن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ)، والأصولي العلامة علاء الدين الباجي (٦٣١-٧١٤هـ)، وقد كان من معاصري ابن تيمية كبارُ المحدثين والمؤرخين، كالعلامة جمال الدين أبي الحجاج المزي (٦٥٤-٧٤٢هـ)، والحافظ علم الدين البرزالي (٦٦٥-٧٣٩هـ)، والعلامة شمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٧هـ)، الذين كانوا يعدّون الأركان الثلاثة للحديث والرواية في عصرهم، والذين يعتمد على كتبهم المتأخرون من العلماء.

كما نبغ في عصره أساتذة الفنّ البارعون، وعلماء ذوو كفاءات علمية قوية، كانت مرجع الخلق، وطار صيتُهم العلمي في الآفاق، كقاضي القضاة جمال الدين بن الزملكاني (٦٦٧-٧٢٧هـ)، وقاضي القضاة جلال الدين القزويني (ت٧٣٩)، والعلامة أبو حيّان النحوي (٦٥٤- ٧٤٥هـ)، وقاضي القضاة تقي الدين السبكي (٦٨٣-٧٥٦هـ) وغيرهم.

وقد أُلف في نفس هذا القرن كتبٌ جليلة تُعتبر مرجعًا للمتأخرين من العلماء؛ كمقدمة العلامة تقي الدين بن الصلاح، والقواعد الكبرى للشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٨٧-٦٦٠هـ)، والمجموع شرح المهذب، وشرح مسلم للإمام النووي، وكتاب الإلمام وإحكام الأحكام لابن دقيق العيد، وتهذيب الكمال لأبي الحجاج المزي، وميزان الاعتدال، وتاريخ الإسلام للعلامة الذهبي، إضافة إلى عددٍ من الشخصيات والمآثر العلمية.

الاتجاهاتُ الفكرية السائدة في هذا العصر:

يمكن أن نلخّص الاتجاهات الفكرية السائدة في هذا العصر في النقاط الآتية:

١ـ العلماء في التخصّصات الشرعية.

٢ـ الفلاسفة المسلمون.

٣ـ المتصوّفة.

٤ـ الفرق الإسلامية.

ونفصّل ذلك فيما يأتي:

كانت الحياة الفكرية في عصر ابن تيمية متشعّبة؛ فنجد التخصّصات الشرعية من الحديث والتفسير والنحْو والفقه والعقائد، كذلك كان الفلاسفة المسلمون الذين ينطلقون في دراستهم مُنتهين إلى ما تتأدّى بهم إليه النتائج، غير مُلتفتين وراء ذلك، وبين هؤلاء وهؤلاء علماء حاولوا أن يربطوا بين الفلسفة والدين، كما فعل أصحاب «رسائل إخوان الصفا»، وكما فعل ابن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال».

وفي وسط ذلك الجمود الفكري، والشطط الفلسفي؛ نجد علماء أفذاذًا، قد جمعوا بين المعقول والمنقول، وقوة الفكر مع قوة الدين، كالعز بن عبد السلام، ومحيي الدين النووي، وابن دقيق العيد، والغزالي، وفخر الدين الرازي.

أيضًا بجوار هؤلاء العلماء نجد المتصوّفة، الذين جمعوا بين المناهج الفلسفية العقلية، والمنازع الروحية الخالصة، وخلصوا من ذلك بفلسفة روحية تقرب أو تبعد من المناهج الدينية التي سلكها علماءُ الدين بالمصباح المنير من كتاب الله المبين، وسنة رسوله النبي الكريم ﷺ.

ومن وراء ذلك المتصوّفة المتفلسفة، كان أصحاب الطريق يقودون العامة، ويرشدونهم إلى مناهج السلوك الذي سنّه علماء الصوفية، وقد يشتطّون فيبتعدون عن الدين، ومسالكُهم في الإرشاد والتقويم تقوم على التهذيب الشخصي من الشيخ لمريديه، بما يُشبه الاسْتهواء، وجاء من وراء ذلك تقديس الأشياخ والاعتقاد فيهم، واتباعهم في الحياة، وتكريمهم بالزيارة بعد الوفاة، حتى كان من وراء ذلك الاعتقاد بمنازلهم من الله، وكرامتهم، وشاعت حولهم الأقوال التي تتجاوز بهم المراتب الإنسانية.

كما كان للفرق الإسلامية في هذا المجتمع مهمات بارزة؛ حيث إن التنازع بدا واضحًا بين هذه الفرق، وظهر فيها التعصب لفكرها واضحًا، وكان الجدل بينهم عقيماً لا يستند إلى

دليلٍ يقْنع، وإنّما كانت المناظرات للغلبة والسيطرة، وليست للحقّ ومساندته؛ ولذلك فقدت الباعثَ الحسن؛ فكان التناحر الفكري الذي ورّث عداوة القلوب، والتفرقة بين أهل الملّة، حتى صاروا شيعًا وأحزابًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ثمّ انتقل الأمر من الجدل والمناظرة إلى المكايدة وتدبير المؤامرات، وموالاة أعداء الإسلام، ووضع الكمين لأذى الأمين، وفساد الأمر عند أولياء الأمر؛ كما كان الأمر بين الجماعة والشيعة[1].

ويمكننا أن نلخّص أبرز معالم ذلك العصر في عددٍ من النقاط، منها:

١- انتهاء الخطر الصليبي وبقاء آثارُه السيئة على البلاد والعباد.

٢- اجتياح التتار لبلاد المسلمين، وبروز جهود ابن تيمية في جهادهم وقتالهم.

٣- كثرة الحكّام في هذا العصر كثرةً جعلت الحياة السياسية مليئة بالأحداث والمخالفات، ممّا جعل للعلماء دورًا بارزًا في نصح الحكام وحثّهم على إقامة أحكام الدين ومبادئه الأساسية.

٤- كثرة الخلافات الفكرية والمذهبية في هذا العصر الناتجة عن تعدّد الأجناس البشرية في المكان الواحد وتعدّد القضايا.

كما اتّسم هذا العصر بنُشوء المدارس العلمية، وبزوغ الأئمة الأعلام أصحاب الكفاءات العلمية، كما ساد هذا العصر التعصّب الفكري الذي لم يكنْ يقبلُ الاجتهاد، كما ظهرت بدعُ الصوفية وتأويلات المتكلّمين.

***

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣٢، ١٣٣) بتصرف.

المبحثُ الثالث

تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري

• **ابنُ تيمية ومكانته العلمية:**

كان ابنُ تيمية عظيماً في شخصيته حيث اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحدٍ مِن عصره، فهو الذّكي الألْمعي، وهو الكاتب العبقري، وهو الخطيب المصقع، وهو الباحث المُنقب والعالم المطّلع، الذي درس أقوال السابقين وقد أنضجها الزمان وصقلتها التجاربُ ومحّصتها الاختبارات، فنفذت بصيرته إلى لبّها وتغلغلَ في أعماقها، وعرف أسرارها، وفحص الروايات ووازَنَ بين الآيات، وطبّقها على الزمان مع إدراكٍ للقوانين الجامعة، وربط للجزئيات وجمع للأشتات المتفرّقة ووضعها في قرن واحد.

امتازَ ابنُ تيمية بخصائص علميّة منها:

• **غزارة علومه:**

لم يكنِ ابنُ تيمية مُقتصرًا على فنٍّ مِن الفنون العلمية، ولكنه أجاد ونبغَ في كثير من العلوم خاصّة علوم القرآن والسنة النبوية، بالإضافة إلى الرياضيات والفلك والجغرافيا والطبّ وغيرها، كما أنّه أحاط بالمذاهب الباطلة التي نشأت في عصره آنذاك ليردّ عليها، وليأخذ بأيدي مُعتنقيها إلى الصلاح.

ومِن هذه العلوم التي تميّز فيها:

١ - علوم القرآن:

كان علمُه بكتاب الله لافتًا؛ فقد كان يعرف دقائق القرآن ويستنبط المعاني بمهارة بالغة، وينقل أقوالَ العلماء في التّفسير ويستشهد بالدّلائل، «وَلَقَد كَانَ إِذا قرئ فِي مَجْلِسه آياتٌ من القُرْآن العَظِيم يشرع فِي تَفْسيرها فينقضي المجْلس بجُملته والدرس برمّتِه وهوَ في تَفْسير بعض

آيَة مِنها، وَكانَ مَجلِسه فِي وَقت مُقَدّر بِقدر ربع النَّهار يفعل ذَلِك بديهةً من غير أن يكون لَه قارِئ معِين يقْرأ لَه شيئًا معيّنًا يبيته ليستعدّ لتفسيره، بل كانَ مَن حضر يقرَأ مَا تيَسّر وَيأخُذ هُو فِي القَول على تَفْسيره، وَكانَ غالبًا لا يقطع إلَّا وَيفهم السامعون أنّه لَولا مُضيّ الزّمن المُعْتاد لأورد أشْياء أخَر في معنى ما هُو فيه من التَّفسير، لَكِن يقطع نظرًا فِي مصالح الحاضرين، وَلقَد أمْلى فِي تَفْسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مجلدًا كبيرًا، وَقَوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] نَحْو خمس وَثلاثينَ كراسة، وَلقَد بَلغني أنه شرع في جمع تَفْسير لَو أتمّه لبلغ خمسين مجلدًا»[1].

٢- علمُه بالسنة:

أمّا السنّة، فقد كان- أيضًا- مميّزًا في فهْمها والوقوف عليها، وكان بصره بِسنة رَسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله وقضاياه وَوَقائعه وغزواته وسراياه وبعوثه، وَما خصّه الله- تعالى- مِن كراماته ومعجزاته ومعرفته بِصَحيح المَنْقول عَنه وسقيمه وَبَقِيَّة المَنْقول عَن الصَّحابَة - رضي الله عنهم- فِي أقْوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وَما خصّوا بِه من بَين الأمّة، فإنَّه كانَ - رحمه الله - مِن أضبط النّاس لذلِك وأعرفهم فيه وأسرعهم اسْتحضارًا لما يُريده منْه؛ فإنَّه قلّ أنْ ذكر حديثًا فِي مُصَنّف أو فَتوَى أو اسْتشهد بِه أو استدلَّ بِه إلا وَعَزاهُ فِي أي دواوين الإسلام هُو، وَمن أَي قسْم من الصَّحيح أو الحسن أو غَيرهما، وَذكر اسْم روايه مِن الصَّحابَة، وَقلّ أنْ يسْأَل عَن أثر إلَّا وَبَيّن في الحال حَاله وَحال أمره وذاكره»[2].

• **ابنُ تيمية بين العلماء:**

لم يكنِ ابنُ تيمية مختصًّا كالأئمّة السابقين؛ فأبو حنيفة كان فقيهًا ولم يعرف إلّا أنّه فقيه، وإنْ كانت له في صدْر حياته جولة في علْم الكلام، فقد طرح الخلاف في علم الكلام إلى التخصّص

(١) الأعلام العلية، ص(٢١٢)، والكواكب الدرية، ص(١٤٩).
(٢) الأعلام العلية، ص(٢١، ٢٢).

في الفقه واستنباط الأحكام، ومالك كان فقيهًا ومحدّثًا، ولم تكن قدْ تميّزت التّفرقة بين الفقه والحديث تميّزًا كاملًا، والشافعي وإنْ كان الفصيح الأديب فقد تخصّص في الفقه وأصوله، ولذلك كانت دراسة علومهم سهلة؛ لأنها ناحية واحدة من العلم، والنواحي الأخرى كانت آراءً اعْتقدوها بوصف كوْنهم علماء مسلمين لا بوصف كوْنهم علماء مختصّين.

أمّا ابن تيمية، فجولاته في الفقه جعلته فقيهَ عصره، وجولاته في علم الكلام جعلته أبرزَ شخصية فيه، وتفسيراتُه للقرآن الكريم ودراسته لأصول التفسير ووضعه المناهج لها جعلته في صفوف المفسّرين، وله في كلّ هذه العلوم آراءٌ مبنيّة على فحص ودراسة، ويعدّ أوّل مَن جهر بها، وإنْ كان يقول: إنها مذهب السّلف وليست بدعًا ابتدعه، ولا بديئًا ابتكره، وإنّما هي رجعةٌ إلى حيث كان الإسلام في إبّان مجْدِه أيام كان غضًّا لم تلقِ عليه السنون غبارَ التقليد والنسيان[1].

لقد بلغ ابنُ تيمية بمواهبه الفطرية وعلوّ نفسه ومقدرتِه الفكرية وبعْدِ غايته وسموِّ قصدِه وإحاطته بزمَنه وأحوال أهلِه وبمختلف العلوم درسًا وتحصيلًا وتدريسًا وتأليفًا؛ رُتبةَ الاجتهاد في الفقه والإمامة في كلّ فنٍّ مارسه على فطاحل العلماء، وفاقَ فيه الأعْيان والنظراء، وتحدّث عن ذلك الثّقات من العلماء، وأثنوا عليه الثناءَ الحسن، وكان أتبعَ الناس للكتاب والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين المقتفين آثارَ النبوة، فكان سلفيَّ العقيدة والمنهج[2].

• **نشأتُه العلمية:**

يقول الذّهبي- رحمه الله- واصفًا نشأةَ ابن تيمية العلمية التي بهرتِ العلماء والحكماء شارحًا لبعض صفاتِه الخُلقية والخِلقية:

«تحوّل به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبعٍ وستين عند جوْر التتار منهزمين في الليل، يجرّون الذريّة والكتب على عجلة، فإنّ العدو ما ترك في البلد دوابّ سوى بقر الحرْث، وكلّت

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣، ١٤).
(٢) شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، للعلامة الشيخ حسنين مخلوف، ضمن تقدمة ديوان ابن تيمية، جمع وتحقيق وشرح: د محمد عبد الرحيم، ص(٣٩-٤١).

البقر من نقل العجلة، ووقفت، وخافوا أن يدركهم العدو، ولجئوا إلى الله- تعالى- فسارت البقرُ بالعجلة، ولطف الله- تعالى- حتى انْحازوا إلى حدّ الإسلام.

فسمع مِن ابن عبد الدايم[١] وابن أبي اليسر[٢] والكمال بن عبد[٣]، وابن أبي الخير[٤]، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين[٥]، والقاسم الإربيلي[٦]، وابن علان[٧]، وخلق كثير، وأكثرَ وبالغَ وقرأ بنفسه على جماعة، وانتخب ونسخ عدّة أجزاء، و«سنن أبي داود»، ونظر في الرجال والعِلل، وصار مِن أئمّة النقد ومِن علماء الأثر، مع التديّن والنّبالة والذّكر والصيانة، ثمّ أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف، حتى كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألةً من مسائل الخلاف، ثمّ يستدلّ ويرجع ويجتهد، وحقّ له ذلك؛ فإنّ شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعتْ فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرعَ انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة

(١) محمد بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي، ولد سنة ثمان أو ٦٤٩، وتوفّي في رجب سنة ٧٤٣، وسمع من جدّه السراجيات الخمسة. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/ ٤١٥، إكمال الكمال ٥/ ١١٣.

(٢) إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن أبي المجد مسند الشام تقي الدين شرف الفضلاء أبو محمد التنوخي المعري الأصل الدمشقي، ولد سنة تسع وثمانين وتوفي سنة اثنين وسبعين وستمائة، تفرّد بأشياء كثيرة، وكان متميّزًا في كتابة الإنشاء، جيّد النظم، حسن القول، ديّنًا، متصونًا، صحيح السماع، من بيت كتابة وجلالة، وكان جدّه كاتب الإنشاء لنور الدين. انظر: الوافي بالوفيات للصفدي ٣/ ١٩٥.

(٣) الكمال بن عيد: هو محمد بن علي بن عبد القوي الصالحي الحنبل، درس وأفتى وحذق وبرع في العربية واللغة، وعاش سبعين سنة.

(٤) ابن أبي الخير: هو أحمد بن سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المقرئ الخياط الدلال. ولد سنة ٥٨٩هـ، الموافق ١١٩٣م، وتوفي سنة ٦٧٨هـ الموافق ١٢٧٩م.

(٥) شمس الدين بن عطاء الحنفي، هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يوسف بن القاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي الدمشقي، سمع من الفخر من مشيخته، كان قاضيًا، وتوفّي بدمشق في شوال سنة ٧٦٤ ه، (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) ٩٩/ ١، (الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/ ٣١٨).

(٦) القاسم بن أبي بكر القاسم بن غنيمة العدل أمير الدين أبو محمد الأربكي المقرئ المحدث.
ولد سنة خمس وتسعين، وتوفي ثماني وستمائة، وروى صحيح مسلم عن الطوى المؤبد بدمشق، من غير أصل. سمع منه ابن تيمية وابن الفتح. راجع: الوافي بالوفيا ١/ ١٩٨.

(٧) ابن علان: فقيه ومحدّث، وهو آخرُ مَن روى مِن الحفاظ عن الحافظ بن عساكر بدمشق. توفي عن عمرٍ يناهز التسع وثمانين سنة. البداية والنهاية (١٣/ ١٨٦).

التي يوردها منْه، ولا أشدّ استحضارًا لمُتون الحديث وعزْوها إلى الصحيح، أو إلى المسند أو إلى السّنن منه، كأنّ الكتاب والسنن نُصْب عينيه وعلى طرفِ لسانه، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة، وإفحامٍ للمخالف.

وكان آيةً من آيات الله- تعالى- في التّفسير والتوسّع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلسَ والمجلسين.

وأمّا أصول الدّيانة ومعرفتها ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة، فكان لا يشقّ فيه غباره، ولا يلحق شأوه.

هذا ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهدْ مثله قطّ، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ عن ملاذِ النفس من اللّباس الجميل والمأكل الطيب والراحة الدنيوية.

ثمّ استكمل الحديث واصفًا مؤلفاتِه بقوله: «ولقد سارت بتصانيفه الرّكبان في متون من العلم وألوان، ولعلّ تواليفه وفتاويه والأصول والفروع والزهد واليقين والإخلاص وغير ذلك تبلغ ثلاثمائة مجلدًا، لا بل أكثر من ذلك.

كان قوّالا بالحقّ، نهّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومةَ لائم، ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة الأغيار، ومَن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومَن نابذه وخالفه ينسبني إلى التّغالي فيه، وليس الأمر كذلك، مع أنني لا أعتقد فيه العِصمة، كلّا فإنّه مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسَيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدّين؛ بشَرٌ من البشر، تعتريه حدّة في البحث وغضب، وشظف للخصْم يزرع له عداوة في النفوس، ونفورًا عنه، وإلّا- والله- لو لطف الخصوم ورفق بهم ولزم المجاملة، وحسن المكالمة؛ لكان كلمة إجماع، فإنّ كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، مُعترفون بشغوفه وذكائه، مُقرّون بندور خطَئه، لست أعني بعضَ العلماء الذين شعارهم وهجيراهم الاستخفاف به، والازْدراء بفضله، والمَقت له، حتى استجهلوه وكفّروه، ونالوا منه مِن غير أن ينظروا في تصانيفه، ولا فهموا كلامَه، ولا لهم حظّ تامّ من التوسّع في المعارف، والعالمُ منهم قد ينصفه ويردّ عليهم بعلم، وطريق العقل السكوت عمّا شجر بين الأقران، رحم الله الجميع.

يواصل الذهبي- رحمه الله- الحديثَ عن شيخ الإسلام ابن تيمية موضحًا غزارة علمِه، وطرفًا مِن خلاف أعداء الشّيخ له، موضحًا ردّه على مَن اتّهمه بالكفر، واقعًا على أسباب هذا العداء، فيقول- رحمه الله:

«وأنا أقلّ مِن أن ينبه على قدْره كلمي، أو أنْ يوضّح نبأه قلمي، فأصحابُه وأعداؤه خاضعون لعلمه مَقرون بسرعةِ فهمه، وأنه بحرٌ لا ساحل له، وكنزٌ لا نظير له، وأنّ جوده حاتمي، وشجاعته خالديّة، ولكن قد ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا، مُنصفهم فيها مأجور، ومقتصدُهم فيها معذور، وظالمُهم فيها مأزور، وغاليهم مغْرور، وإلى الله ترجع الأمور.

وكلّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك، والكمال للرسل، والحجّة في الإجماع، فرحِمَ الله أمرًا تكلّم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم، ثمّ استغفرَ لهم ووسّع نطاق المعْذرة، وإلّا فهو لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، وإن أنت عذرت كبارَ الأئمّة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته فقد أقررْت على نفسك بالهوى وعدم الإنصاف.

وإنْ قلت: لا أعذره لأنه كافر، هو والله- تعالى- ورسوله محافظٌ على الصلاة والوضوء وصوم رمضان، معظّم للشريعة ظاهرًا وباطنًا، لا يؤتى مِن سوء فهم، بل له الذّكاء المُفرط، ولا من قلّة علم، فإنه بحر زخّار بصيرٌ بالكتاب والسنة، عديم النظر في ذلك، ولا هو بمُتلاعب بالدين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلى مداهنة الخصوم وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو يتفرّد بمسائل بلا تشهّي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتجّ لها بالقرآن والحديث أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها ويطيل البحث أسوةً بمَن تقدّمه مِن الأئمة، فإنْ كان قد أخطأ فله أجرُ المجتهد من العلماء، وإنْ كان قد أصاب فلَهُ أجْران، وإنّما الذّم والمقت لأحدِ رجُلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبدِ حجّة، ورجل تكلّم في مسألة بلا خميرة من علمٍ ولا توسّع في نقل، فنعوذ بالله من الهوى والجهل.

ولا ريبَ أنه لا اعتبار بذمّ أعداء العالم، فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف والقيام عليه، ولا اعتبار بمدح خواصّه والغلاة فيه، فإنّ الحبّ يحملهم على تغطية هَناته، بل

قد يعدّوها له محاسن، وإنّما العبرة بأهل الورع، والتقوى من الطرفين الذين يتكلّمون بالقسط، ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم، فهذا الرجل لا أرجو على ما قلتُه فيه ذنبًا ولا مالًا ولا جاهًا بوجْه أصلًا، مع خبرتي التامّة به، ولكن لا يسعني في ديني وعقلي أنْ أكتم محاسنه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوبًا له مغفورة في سعة كرم الله تعالى، وصفحة مغْمورة في بحر علمه وجوده، فالله يغفر له ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرْنا إلى ما صار إليه، مع أني مُخالف له في مسائل أصلية وفرعية، قد أبديتُ آنفًا أنّ خطأه فيها مغفور، بل قد يثيبه الله- تعالى- فيها على حُسن قصده، وبذل وسْعِه، مع أني قد أوذيت لكلامي فيه مِن أصحابه وأضداده، فحسبي الله»[1].

• **ابن تيمية وجهادُه الفكري:**

استطاع ابنُ تيمية بأخلاقه وعلمه أنْ يصل إلى درجة الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع والشجاعة، والكرم والتواضع، والحلم والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسّك بالأمر بالمعروف والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم[2].

وحريًّا برجُلٍ هذه صفاته أن يقف على مشكلات عصره، خاصّة بعدما رآها وقد خالفت وتجاوزت الحدّ في البُعد عن الكتاب والسنة ومنهج الصحابة - رضي الله عنهم - والسلف الصالح، وحياتهم المليئة بالأمجاد والتضحيات، من أجل الإسلام وإعلاء كلمته؛ أنْ يضع نفسَه مصلحًا ومجاهدًا لتلك النقائص التي تنتابُ عصره، وقد جعل الله ذلك فرضًا مِن فروض

---

(١) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، ص(٥٤٠، ٥٤١) الجامع.
ترجمة ابن تيمية من كتاب ذيل تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبي، تحقيق وتعليق: محمد بن ناصر العجمي، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار ابن الأثير، الكويت، ص(٢٢، ٢٣).
انظر: ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: ابن عبد الرحمن سعيد مغشاشة، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص(٣٩، ٤٠).
وانظر: مقدمة كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية للإمام أبي عبد الله الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء، ص(٤، ٥، ٦).

(٢) ترجمة شيخ الإسلام، ص(١٣).

الكفاية على المسلمين؛ لذلك عمل جاهدًا على إزالة الأغشية التي غشيته بفعْل العصور وتوالي الجمود على أفكار لم تستق مِن منابع الشرع والدين؛ لذلك تعرّض لمخالفة علماءِ المُسلمين وفرق معتدلة لم تكن مُغالية أو لم تكن مُبتدعة، ثمّ تعرّض لمخالفة الصوفية فجاءه العَداء من ناحية التيّار الأشعري والماتريدي، ثمّ من ناحية الصوفية الذين كانوا يشعْوذون إنْ لم يكن في قلوبهم ونيّاتهم الكيد للإسلام، ثمّ مِن ناحية الفقهاء الذين خرج عليهم بآرائه الفقهية، التي لم يكن لهم عهدٌ بها، فكان كلّ أولئك مُنازعين على مودّة في أحيان قليلة، وعلى عداوة في أكثر الأحيان، فناظر كلّ طائفةٍ من هذه الطوائف، وجادلها بالقول في المجالس الحافلة، وبالرسائل يرسلها قويّة بالحجّة الدافقة، حتى ابتلي وسُجن[1].

ولعلّ ما قام به ابن تيمية يُمكننا أن نلخصه في النقاط الآتية:

١- تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد الشركية.

٢- نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وترجيح منهج الكتاب والسنة وأسلوبهما على كلّ منهج وأسلوب.

٣- الردّ على الفرق والمِلل غير الإسلامية، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها.

٤- تجديد العلوم الشرعية، وبعث الفكر الإسلامي.

٥- قيامه بالجهاد بالنفس وتغْيير المنكر، وكان رائدًا للتجديد والإصلاح والنهضة السلفية وإعادة البناء بعد سقوط الخلافة[2].

• **وسائلُ ابن تيمية في عطائه العلمي:**

تعدّدت وسائلُ ابن تيمية في مجال جهاده بالعلم إلى وسائل متعدّدة ومتنوّعة طبقًا للظروف والأحوال، فهو مع عامّة الناس ومؤيّديه؛ تجد الفتاوى والمحاضرات المتنوعة الطويلة، والرسائل القوية التي توضّح لهم ما غمض عليهم، أو حلول واعية لكلّ ما يعْتريهم مِن مُشكلات، ومع

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٠٥).
(٢) رجال الفكر والدعوة، ص(٦).

المخالفين تجدُ المناظرات والمناقشات الجادّة المستندة إلى الأدلّة الواضحة مِن الكتاب والسنة؛ لمحْو البدع وتصحيح الأفكار من العقائد الفاسدة، متحمّلًا كلّ المشاقّ والانتقادات والخلافات في سبيل الوصول إلى الحقيقة الناصعة.

وأيضًا في كلّ الأوقات المتاحة تقريبًا نجدُه مؤلفًا شارحًا كلّ ما يستطيع تقديمه للناس من قضايا وحلول فكرية واجتماعية، أو سياسية دولية، فهو لا يرى نفسه إلّا مُصلحًا قدِ اختاره الله – عز وجل – لهذا الزّمن ليجدّد للناس دينهم، ويخلّصهم من المفاسد التي اعْترتهم من تكْرار الغفوة عن المنهج الرباني.

أمّا فتاويه فيبيّنها البزار في كتابه الماتع «الأعلام العليّة» بأنها أكثر مِن أن يحصيها «ومصنفاته فإنَّها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جمْلَة أسمائها، بل هَذا لا يقدر عَليه غالبًا أحد؛ لأنَّها كَثيرَة جدًّا كبارًا وصغارًا، وَهي منشورة في البلدانِ، فَقلّ بلد نزلته إلَّا وَرأيْت فِيه مِن تصانيفه»[1].

وقد صدق؛ فقد أفردت بدراسات مُفردة كدراسة ابن القيم، وكالتي جمعَها علّامة الحجاز الفاضل الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد بعنوان الجامع لآثار ابن تيمية– كما سيأتي.

• **دروسُه:**

وأمّا دروسه، فيبيّنها بيانًا واضحًا البزار نفسُه بقوله: «وأمّا ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بِدمَشق لا أفوتها، وَكانَ لا يهيئ شيئًا من العلم ليلقيه ويوردَه، بل يجلس بعد أن يُصَلّي رَكعَتَيْن فيحمد الله ويثني عَلَيه ويُصلي على رَسوله ρ على صفة مُسْتحسنة مُسْتعذبة لم أسمعْها من غيره، ثمّ يشرع فَيفتح الله عَلَيه إيراد عُلوم وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونُقول واستدلالات بآيات وَأحاديث وأقوال العلماء وَنصر بَعضها وَتبين صِحَّته أو تزييف بَعضها وإيضاح حجَّته، واستشهاد بأشعار العَرَب، وَرُبما ذكر اسْم ناظمها، وهُو مَع ذَلك يجْري كَما يجْري السَّيْل، وَيفيض كَما يفيض البَحْر، وَيصير منذُ يتكَلَّم إلَى أن يفرغ كالغائب عَن الحاضرين

(١) الأعلام العلية، ص(٢٦).

مُغمضًا عَيْنيه، وَذلكَ كُله معَ عدم فكر فيهِ أو رويّة من غير تعجْرف، وَلا توقف ولا لحْن، بل فيض إلهي حتَّى يبهر كلّ سامع وناظر، فَلا يزال كَذلِك إلَى أن يصمت، وَكنت أراه حينئذٍ كأَنَّه قد صار بِحضرَة من يشْغلهُ عَن غَيره، وَيقَع عَلَيه إذْ ذاك مِن المهابة ما يرعد القُلوب ويحيّر الأبْصَار والعقول، وَكانَ لا يذكُر رَسول الله ﷺ قطّ إلّا وَيصلي وَيسلم عَلَيه، وَلا والله ما رَأيْت أحدًا أشدّ تَعظيمًا لرَسول الله ﷺ وَلا أحرص على اتّباعه وَنَصْر ما جاءَ بِه مِنْه، حتَّى إذا كانَ وردّ شيء من حَديثه في مَسْألة، ويرى أنه لم ينسخه شَيء غَيره من حَديث يعْمل بِه وَيقضي ويفتي بِمقْتضاهُ وَلا يلْتَفت إلى قَول غَيره من المخلوقين كائِنًا مَن كان»[1].

• **مؤلفاتُه:**

بدأ شيخُ الإسلام التأليفَ في سنّ مُبكرة وله تسعة عشر عامًا، وعاش سبعًا وستين عامًا؛ لذلك كثرت مؤلفاته، وتعدّدت أقوال العلماء في عددِ مؤلفاته؛ فقد ذكر الذهبي أنّ تصانيفه بلغت أربعة آلاف كرّاسة أو أكثر[2]، وأوصل السيوطي عددَها إلى ثلاثمائة، وحكى الصفدي[3] وابن شاكر عن الذهبي أنه عدّها خمسمائة مؤلفًا[4].

وقيل: إنها بلغت مائتي مجلد أو أكثر[5].

وقيل: إنها ألف[6].

وأجمع أغلبُ العلماء على أنّ مُصنّفاته أكثر مِن أن تحصى؛ لأنها كثيرة جدًّا، كبارًا وصغارًا، وهي مَنشورة في البلدان، ولعلّ سببَ اختلاف العلماء في عددها كثرتها، وأنّ منهم مَن حصرها مجلدات، ومنهم مَن حصرها كتبًا، أو رسائل.

---

(١) السابق، ص(٢٨).
(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٧).
(٣) خليل بن أيبك بن عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدي أبو الصفاء، ولد سنة ستّ أو سبع وتسعين وستمائة تقريبًا، وتعلّم صناعة الرسم فمَهَر فيها، ثمّ حُبّب إليه الأدب فولع به، وكتب الخط الجيد، ومات بدمشق في ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤، الدرر الكامنة: ٢/ ٢٠٧ وما بعدها
(٤) شذرات الذهب، (٦/ ٨٤).
(٥) الأعلام العلية، ص(٢٦).
(٦) الشهادة الزكية، ص(٤٣)، والعقود الدرية، ص(٢٣).

• **أسبابُ كثرة مؤلّفات ابن تيمية:**

كثرتْ مؤلّفات ابن تيمية كثرةً لافتةً للنظر، ولذلك أسبابٌ كثيرة، منها: أنه بدأ التأليف من صغره- كما سبق، واستمرّ عليه ولم يتركْه، حتى في فترات المحنة وسنوات السّجن، كما كان يؤلّف من صدره لحفظه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما دوّن فيهما مِن شرح، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرةُ محفوظاته وفيضُ خاطره وسعةُ بيانه على تدوين حقائق لم يكتبْ لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكنْ له سوى منهاج السنة لَكَفاه على الأيام فخرًا[1].

• **أسبابُ تعذّر حصر مؤلفاته:**

حصرُ مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية متعذّرة وغير مُمكنة بشهادة كثيرٍ مِن العلماء، ويرجع ذلك لأسبابٍ، منها:

١- سرعة كتابته؛ فهو يكتب مِن حفظه، مِن غيْر نقل، ويكتب في كلّ زمان ومكان، وعلى أي حال.

٢- صعوبة خطّ الشيخ؛ لهذا لا يبيّض ما كتبه، وقد شعر الشيخ بذلك فطلب إظهارَ ذلك وعدمَ كتمانه؛ لينتشر، ولكنّ التلاميذ لم يفعلوا فانتشر بعد وفاته.

٣- أنّه كان يكتب الجوابَ لبعض السائلين فيذهب بخطّه، وبما كتب فيه فإنِ اطّلع عليه بعض التلاميذ بيّضَه، وإلّا ذهب معه، فقد يظهر يومًا من الأيام بعد وفاة الشيخ، أو لا يظهر أبدًا.

٤- يكتب الشيخ المجلدَ في اليوم الواحد أو أكثر من ذلك.

٥- يجيب الشيخُ على الأسئلة الموجّهة إليه مكتوبة كتابة بأكثر من مجلد؛ لهذا كثرتْ مؤلّفاته مع جَهالة اسم المؤلف؛ لأنها إجابةٌ لسؤال، فقد يسمّى باسم السائل.

٦- الفتن والامتحانات التي تعرّض لها شيخ الإسلام.

٧- خوف أصحابه من إظهار كتبه بعد حبْس الشيخ، وذهاب كلّ واحدٍ بما عنده، وتفرّقهم.

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢٨).

٨- أكثر ما كتبه في الحبْس صودِرَ وأخذه منه خصومه، ومنها ما أتلف، وحتى بعدَ وفاته إلى عصور متأخّرة؛ حيث قام بعضُ أعيان دمشق من خصوم الشيخ بمحاولاتٍ عديدة لإتلاف كتبه[١].

يقول الإمام الصفدي في معرض الحديث عن عدم حصْر كتب الشيخ وتصانيفه، وصعوبة ذلك: «مَن الذي يأتي على مجموعها، ولله درّ القائل:

إنّ في الموج للغريق لعذرًا واضحًا أن يفوته تعداده»[٢]

وقد نصّ ابنُ رجب على ذلك بقوله: «وأمّا تصانيفه- رحمه الله- فهي أشهرُ مِن أن تُذكر، وأعرف مِن أن تُنكر. سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمْصار، قد جاوزت حدّ الكثرة، فلا يمكن لأحدٍ حصرها، ولا يتّسع هذا الكلام لعدّ المعروف منها ولا ذكرها، وقد بلغت ثلاثمائة مجلدة.

وكتب بخطّه من التصانيف والتعاليق المفيدة، والفتاوى المشبعة في الأفرع والأصول والحديث وردّ البدع بالكتاب والسنة؛ شيئًا كثيرًا، يبلغ عدّة أحمال، وقد امتحن وأوذي مرارًا»[٣].

ويقول ابن عبد الهادي: «وعددُ مصنّفاته تحتاج إلى أوراق كثيرة، ولا أعلم مِن المتقدّمين ولا مِن المتأخّرين مَن جمع مثل ما جمع، ولا صنّف نحو ما صنّف، ولا قريبًا مِن ذلك، مع أنّ تصانيفه كان يكتبها مِن حفظه»[٤].

• **صفةُ مصنّفاته:**

يقول ابن الزملكاني عن مصنفات الشيخ وصفاته العلمية: كان إذا سئل عن فنٍّ مِن العلم ظنّ الرائي والسّامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أنّ أحدًا لا يعرف مثله، وكان الفقهاء مِن سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لمْ يكونوا عرفوه قبْل ذلك، ولا

(١) انظر: جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح الإيمان بالقدر، د/ تامر متولي، ص(٤٥).
(٢) انظر: منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التأليف، ومراحله المتعددة، ط: أولى، ١٤٢٠هـ- ١٩١٩م، د/ عبد الله محمد الحجيلي، ص(٢٢)، وانظر البيت في: زهر الأكم في الأمثال والحكم، (٢/ ٢٥٨).
(٣) طبقات المفسرين للداوودي، (١/ ٤٩) ضمن الجامع.
(٤) مختصر طبقات علماء الحديث، ص(٢٥٧) ضمن الجامع.

يعرف أنه ناظرَ أحدًا فانْقطع معه، ولا تكلّم في علم من العلوم سواء كان مِن علوم الشرع أو غيرها إلّا فاقَ فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت لَه اليدُ الطولى في حُسن التّصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين»[1].

لقد كان أسلوبُ ابن تيمية موسوعيًّا خاليًا من الجفاف، مُعتمدًا على الاستدلال بالقرآن والسنة، نابذًا للمنطق وعلم الكلام[2].

• **أسماءُ مؤلفاته:**

ذكر كثيرٌ من العلماء مؤلفاته، فمنهم مَن ذكرها مُفردة كابن القيم وابن الرشيق، ومنهم مَن ذكرها ضمْن ترجمته مثل ابن عبد الهادي في طبقات علماء الحديث، والكواكب الدريّة، والصفدي في الوافي بالوفيات، والداودي في طبقات المفسرين، والبزار في الأعلام العليّة، فنرى البزار- مثلًا- يتحدّث عن كتب الشيخ وكثرتها، وتنوّعها بقوله: «وَمن أعجب الأَشْيَاء في ذَلِك أنه فِي محنته الأولى بِمصْر لما أُخذ وسجن وحيل بَينه وَبَين كتبه؛ صنّف عدَّة كتب صغارًا وكبارًا، وَذكر فِيهَا مَا احْتَاجَ إِلَى ذكره من الأَحَادِيث والآثَار وأقوال العلَمَاء وَأَسْمَاء المُحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم، وَعزا كلّ شيء من ذَلِك إِلَى ناقليه وقائليه بِأَسْمائهِمْ، وَذكر أسمَاء الكتب الَّتِي ذكر فِيهَا، وَأي مَوضِع هُوَ مِنْها، كلّ ذَلِك بديهة من حفظه؛ لأَنَّهُ لم يكن عِنْده حينَئذٍ كتاب يطالعه، ونقبت واختبرت واعتبرت فَلم يُوجد فِيهَا بِحَمْد الله خلل، وَلا تغيّر، وَمن جُمْلَتهَا كتاب الصارم المسلول على شاتم الرَّسول»[3].

ومِن عجائبه- أيضًا- ما أخبر به تلميذُه الإمام البزار بقوله: أَخْبرني الشَّيْخ الصَّالح تَاج الدّين مُحَمَّد المَعْرُوف بابْن الدوري أنه حضر مجْلِس الشَّيْخ - رحمه الله - وَقد سَأَلَهُ يَهُودِيّ عَن مسألة فِي القدر قد نظمها شعرًا فِي ثَمانِيَة أبْيَات، فَلَمَّا وقف عَلَيْهَا فكر لحْظَة يسيرَة وأنشأ يكْتب جوابها، وَجعل يكْتب وَنحن نظن أنه يكْتب نثرًا، فَلَمَّا فرغ تَأمله من حضر من أَصْحَابه وَإِذا هُوَ

(١) الردّ الوافر، ص(٥٨)، والعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ص(٣٨٩)، ولمحات تاريخية من حياة ابن تيمية، (٤/ ١٠٩)، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، ص(٣٦).
(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢٨).
(٣) الأعلام العلية، ص(٢٢).

نظم فِي بَحر أَبْيَات السُّؤَال وقافيتها تقرب من مائَة وَأَرْبَعَة وَثَمانِينَ بَيْتًا، وَقد أبرز فِيهَا من العُلُوم مَا لَو شرح بشرح لجاء شَرحه مجلدين كبيرين، هَذَا من جملَة بواهره، وَكم من جَوَاب فَتْوَى لم يسْبق إِلَى مثله»[1].

وقد جمعَ ابن القيم كتبَ ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية التي قام بتأليفها في رسالة وهي مطبوعة، يقول البزار- رحمه الله: «وَأما مؤلفاته ومصنفاته فَإِنَّهَا أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملَة أسمائها، بل هَذَا لا يقدر عَلَيْهِ غالبًا أحد؛ لأَنَّهَا كَثِيرَة جدًّا كبارًا وصغارًا، وَهِي منشورة فِي البلدانِ فَقلّ بلد نزلته إِلَّا وَرَأَيْت فيهِ من تصانيفه، فَمِنْهَا مَا يبلغ اثني عشر مجلدًا كـ: تَلخِيص التّلبيس على أساس التَّقْديس وَغَيره، وَمِنْها ما يبلغ سبعَةَ مجلّدات كـ: الجمع بَين العقل والنَّقْل، وَمِنْها ما يبلغ خمسَةَ مجلدات، وَمِنْهَا منهاج الاسْتقَامَة والاعتدال وَنَحْوه، وَمِنْها مَا يبلغ ثَلاثة مجلدات كـ: الرَّد على النَّصارَى وَشبهه، وَمِنْها مجلّدان كـ: نِكاح المُحَلّل وَإِبْطال الحيَل وَشرح العقيدة الأصبهانيّة، وَمِنْها مُجَلّد وَدون ذَلِك.

وَهَذانِ القسْمان من مؤلفاته فَهيَ كَثِيرَة جدًّا لا يمكنني استقصاؤها، لَكِن أذكر بَعْضها استئناسًا، كتاب تَفْسير سُورَة الإخلاص مُجَلد، كتاب الكَلام على قَوْله - عز وجل -: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾، كتاب الصارم المسلول على شاتم الرَّسول، مُجَلد، كتاب الفرْقَان المُبين بَين الطَّلاق وَاليَمين، كتاب الفرق بَين أَوْلِيَاء الرَّحْمَن وأولياء الشَّيْطان، كتاب اقْتِضاء الصِّراط المُسْتَقيم مُخالفَة أَصْحاب الجَحيم، كتاب الكَلم الطّيب، كتاب إِثْبات الكَمال، كتاب الرَّد على تأسيس التَّقْديس، كتاب الجمع بَين العقل وَالنَّقْل، كتاب نقض أَقْوَال المبتدعين، كتاب الرَّد على النَّصارَى، كتاب منهاج الاسْتقامَة، كتاب إِبطال الحيَل وَنِكَاح المُحَلّل، كتاب شرح العقيدة الأصبهانية، كتاب الفتاوى، كتاب الدّرّ المُلْتَقط، كتاب أَحْكَام الطَّلاق، كتاب الرسالَة، كتاب اعْتِقَاد الفرْقَة النَّاجية، كتاب رفع الملام عَن الأئِمَّة الأعْلام، كتاب تَقْرير مسائِل التَّوْحيد، كتاب الاستغاثة والتوسّل، كتاب المسائِل الحموية، كتاب المسائِل الجزرية، كتاب المسائِل المفردة»[2].

(١) الأعلام العلية، ص(٢٦، ٢٧).
(٢) الأعلام العلية، ص(٢٣) وما بعدها.

• **خصائصُه العلمية:**

يُمكننا بعدما ذكرنا ثناءَ العلماء عليه وعلى مؤلفاته، وتحدّثنا عن صفة تلك المؤلفات وأسمائها؛ أنْ نذكر الخصائص العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ بيانًا لتطابق تلك الشهادات الزكيّة في ثنائهم عليه، وعنايتهم به، على النحْو الآتي:

١- النظرة الشموليّة للعلوم؛ حيث إنه لم يقتصرْ على علمٍ بعينه، وهذا ما أهّله للقيام بعلم السنن قيامًا لافتًا للنظر، مسترعيًا للانتباه.

٢- تمكّنه من هذه العلوم، واستحضاره لها في وقت الحاجة بمهارةٍ فائقة، وهذا ما يفسّر لنا تلك الكثرة والتنوّع في مؤلفاته- كما سبق.

٣- السّعة والغزارة مِن تلك العلوم، حتى تناولت معظم الدراسات الشرعية، وتعمّقت حتى أفاضت بالجديد مِن الآراء.

٤- الاستغراق الذّهني التامّ في العلم، حتى إنه ملك عليه نفسه، فلا يلتفت إلى شيءٍ من الدنيا، مِن ملاذّها وأهوائها.

٥- سموّ الغاية في تحصيل العلْم، فهو لم يتعلّم العلم ليسودَ الناس أو ليجهل عليهم، أو ليماري به السّفهاء، أو للحصول على منزلةٍ مادية عارضة، ولكنه تعلّم العلم ليتقرّب به إلى الله، ويقوم بإصلاح المسلمين وواجبه نحوهم من النّصح والنّفع.

٦- وضوح الغاية والتمسّك بها، ووضع أسس منظّمة ومنهج واضح للوصول إلى هذه الغاية، وتلك الأسس مُعتمدة على ميراث الأنبياء والرسل والسلف الصالح.

٧- غزارة مؤلفاته، كما سبق البيان عنها، حتى وصلت إلى ألفي مؤلف، غير الرسائل وما فقده أثناء محْبسه.

٨- امتازت كتبُه بالاتزان والتّنظيم والنظرة الشمولية الجامعة للقضايا التي يشرحها في مهارةٍ عالية ولغةٍ قويّة وفصاحة وسهولة، وحُسن ترتيب.

وهكذا أهّلَت ابن تيمية تلك المكانةُ العلمية أنْ يكون سيفًا مسلولًا على المخالفين، وشجى في حلوق أهلِ البدع والأهواء، وإمامًا قائمًا ببيان الحقّ ونصرة الدين طنّت بذكره الأمصار، وضنّت بمثله الأعصار[1].

• **شيوخُ ابن تيمية، ومصادرُ تلقّيه للعلم:**

نشأ ابنُ تيمية في حجور العلماء، راشفًا كؤوس المفهوم، راتعًا في رياض التفقّه، ودوحات الكتب الجامعة لكلّ فنّ مِن الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، وخصوصًا علم الكتاب والسنة النبوية ولوازمها.. هكذا وصفه بعضُ قرناء الشيخ- رحمه الله[2].

لقد كانت نشأةُ ابن تيمية الأولى هي الشيخَ الأول الذي أورثه عشقَ العلم واحترامه، وعلمته الاتزان النفسي؛ فورث عقلًا نابهًا قادرًا على الاختيار والتمييز بين الحقّ والباطل، كما أورثته قلبًا نابضًا يحبّ الله - عز وجل -، يستطيع دائمًا التفرقةَ بين الكذب والصّدق، الحقّ والباطل، الصواب والخطأ، فكان محصّلته الفكرية تابعة لشخصيته الذاتيّة، فهو حريصٌ على التعلّم والفهم والإدراك لكلّ ما يجده أمامه، ووسيلته إلى ذلك التي ورثها ولا يثق إلّا بها هي الكتاب والقراءة والحرص على العلم الموسوعي في كلّ المَجالات؛ ليزداد إدراكًا وفهمًا للحياة وللكوْن والمجتمع، ثمّ ليتعلّم كيف يصحّح الأخطاء، ويردّ الأمور إلى الصواب الذي تربّى عليه، ولم يرَ غيره في حياته.

لقد كانت بيئةُ ابن تيمية هي أولَ تأثير في حياته العلمية، حيث كان لأبيه دورٌ بارز في تلقّيه المذهب الحنبلي، كما أنّ صلة والده بالعلماء أورثته معرفةً قويّة بالعلماء وامتزاجًا بهم.

لقد تنوّعت مصادر المعرفة في عصر ابن تيمية، فلم يكنِ التلقّي من أفواه الرجال فقط كما كان الشأنُ في عصر أبي حنيفة ومالك، بل كان تلقي العلم كما هو في عصر تدْوين العلم مِن ناحيتيْن: مِن الرجال الذين يوجّهون ويلقنون ويتخرّج العالم عليهم، ومِن الكتب؛ يدرسها ويفْحصها وينقّب فيها، ومِن مجموع ما يتغذّى ممّا يتناوله مِن شيوخه، وما يستخرجُه مِن بطون

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٣).
(٢) العقود الدرية، ص(٩).

الكتب تتكوّن المادة العلمية التي يبني عليها، ويستنبط منها، ويزيد عليها، وقد يأتي بلونٍ آخر مِن ألوان الفكر.

• **مادّتُه الأولى فيما درس:**

لقد بلغ شيوخُ ابن تيمية الذين سمعَ منهم أكثرَ مِن مائتي شيخ، يقول صاحب الكواكب الدريّة: «فلمْ يزلْ إبّان صغره مستغرقَ الأوقات في الجدّ والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا، ثمّ اشتغل بحفظِ الحديث والفقه والعربية، حتى برعَ في ذلك مع ملازمته مجالس الذّكر وسماع الأحاديث والآثار، ولقد سمع غيرَ كتاب على غيرِ شيخ من ذوي الرّوايات الصحيحة العالية.

أمّا دواوين الإسلام الكبار كمُسند أحمد وصحيح البخاري ومسلم، وجامع الترمذي وسنن أبي داود السجستاني والنسائي وابن ماجه والدارقطني؛ فإنه سمعَ كلًّا منْها مرّات عديدة، وأول كتابٍ حفظَه في الحديث الجمْعُ بين الصحيحين للإمام الحميدي، كذا قال الشيخ الحافظ سراج الدين أبي حفص عمر.

وسمعَ مِن مشايخ كابن عبد الدايم المقْدسي وطبقته، وطلب بنفسه قراءة وسماعًا من خلق كثير، وقرأ الكتبَ الكبار وكتب الطبقات، ولازَمَ السماع، واشتغل بالعلوم.

قال ابن عبد الهادي بنُ قدامة: وشيوخُه الذين سمع منهم أكثرُ مِن مائتي شيخ، وسمع مسندَ الإمام أحمد مرّات، وسمع الكتب الكبار والأجزاء، ومِن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعُني بالحديث، وقرأ ونسخَ وانتقى، وتعلّم الخطّ والحساب في الكتّاب، وحفظ القرآن وأقبلَ على الفقه، وقرأ في العربية، وأخذ يتأمّل كتاب سيبويه حتى فهمَه وبرعَ في النحو، وأقبل على التفسير إقْبالًا كليًّا حتى حازَ فيه قصَبَ السّبق، وأحكم أصولَ الفقه وغير ذلك، هذا كلّه وهو بعْدُ ابنُ بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من فرْط ذكائه، وسَيلان ذهْنه، وقوة حافظته وسرعة إدراكه[1].

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٥٦).

وذكر ابنُ عبد الهادي[١] في كتاب «ذيل طبقات الحنابلة» أنه سمع من ابن أبي اليسر والكمال بن عيد[٢]، والشيخ شمس الدين الحنبلي[٣]، والقاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي[٤]، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي[٥]، ومجد الدين بن عساكر[٦]، والنجيب المقداد[٧] وابن أبي الخير[٨] وابن علان[٩]، وأبي بكر الهروي[١٠] والكمال عبد الرحيم فخر الدين بن البخاري[١١]، وابن شيبان، والشرف بن القواس، وزينب بنت مكي[١٢]، وخلق كثير[١٣].

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الصمد بن عبد الهادي بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي شمس الدين، ولد في رجب سنة ٧٠٥، تردّد إلى ابن تيمية، مهَرَ في الحديث والفقه والأصول والعربية وغيرها، من أهمّ كتبه الأحكام في ثمانية مجلدات، والمحرّر في الحديث، وجمع التفسير المسند، كان حافظا علّامة ناقدًا، حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار، وبرع في الفنون، وكان بارعًا في العلل والطرق والرجال. (البدر الطالع بمحاسن من بعْد القرن السابع ٢/ ١٠٢، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٥٧)

(٢) هو محمّد بن علي بن عبد القوي الصالحي الحنبلي. توفي بمارستان البلد في رجب. درس وأفتى وحذق وبرع في العربية واللغة، وعاش سبعين سنة.

(٣) شمس الدين الحنبلي كان من الأئمة الأجلّاء، ضليعًا بعلوم الفقه والتفسير، أخذ عنه ابن تيمية وغيره، انظر البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٦.

(٤) هو من أساتذة شيخ الإسلام ابن تيمية، البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٦.

(٥) جمال الدين الصيرفي: عالم فقيه محدث و معتمد* ثبته الإمام ابن كثير و دققه في البداية والنهاية ثمّ كان من أساتذة ابن تيمية. درس عليه الفقه والتفسير. (البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦).

(٦) هو القاسم بن أبي غالب المظفر بن محمود طبيب عالم بالحديث كتبت له مشيخة في سبعة مجلدات لزم بيته منقطعا إلى تدريس الحديث، انظر الدرر الكامنة: ٣/ ٢٣٩، والبداية والنهاية: ١٤/ ١٠٨، والأعلام: ٥/ ١٨٥.

(٧)) النجيب المقداد هو نجيب الدين المقدار بن أبي القاسم القيسي، قال ابن النجار: كان حافظا حجة نبيلا جم العلم كثير المحفوظ من أعلام الدين وأئمة المسلمين كثير العبادة والتهجد والصوم وله شعر جيد في الزهديا وسمع منه المصريون والبرزالي أي روح والمؤيد، مات في ربيع الآخر سنة ٦١٩.(سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦٥).

(٨) هو أحمد بن سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المقرئ الخياط الدلال. ولد سنة ٥٨٩هـ الموافق ١١٩٣ م وتوفي سنة ٦٧٨هـ الموافق ١٢٧٩م، انظر: المنهل الصفي والمستوفي بعد الوافي: ١/ ٥٧.

(٩) فقيه و محدث و هو آخر من روى من الحفاظ عن الحافظ بن عساكر بدمشق. توفي عن عمر يناهز التسع وثمانين سنة. البداية والنهاية (١٣/ ١٨٦).

(١٠) السائح علي بن أبي بكر الهروي الزاهد الفاضل الجوال الشيخ علي بن أبي بكر الهروي الذي طوّف، غالب المعمور وقلّ أن تجدَ موضعًا معتبرًا إلّا وقد كتب اسمه عليه مولده بالموصل واستوطن حلب، وله بها رباط، وجمع تواليف وفوائد وعجائب، وله كتاب المزارات وألّف خطبًا، مات في رجب٦١١. (إكمال الكمال ٢/ ٣٩) (إكمال الكمال ٤/ ٥٦١) (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٥٦،٥٧).

(١١) عالم ومحدّث، أخذ عليه ابن تيمية الفقه، البداية والنهاية، ١٤/ ١٣٥.

(١٢) هي زينب بنت مكي بن علي الحراني، فقيهة، ازدحم عليها الطلبة لطلب العلم، ولدت عام ٥٩٤ هـ، وتوفيت في دمشق عام ٦٨٨هـ.

(١٣) ص(٢٤٩).

لقد ذكر الشيخ الذهبي- رحمه الله- بعضَ أسماء مشايخ ابن تيمية مثل: ابن عبد الدايم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين والقاسم الإربلي، وابن علان[1].

ونذكر بعضًا مِن أسماء شيوخِه:

١- الإمام المحدّث الفقيه مسند الشام أبو العباس زين الدين أحمد بن عبد الدايم بن أحمد المقدسي المولود سنة ٥٧٥ هـ، من شيوخ الحنابلة، عالم بالحديث، توفي سنة ٦٦٨ هـ[2].

٢- الشيخ الإمام العالم العلّامة، الزاهد قاضي القضاة شمس الدين، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، ولد في محرم سنة ٥٩٧هـ، وتوفي سنة ٦٨٢هـ، وكان عالمًا في الفقه والحديث والأصول[3].

٣- الإمام الفقيه القاضي شرف الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن نعمة المقدسي الشافعي، المولود سنة ٦٢٢ هـ، برع في الفقه والأصول والعربية، توفي سنة ٦٩٤هـ[4].

٤- والده الإمام الفقيه العلامة المحدث أبو المحاسن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، المتوفّى سنة ٦٨٢هـ، سمع منه بحرّان سنة ٦٦٦هـ[5].

٥- الإمام الفقيه المحدث زين الدين أبو البركات المنجي بن عثمان بن أسعد بن المنجيّ بن البركات التنوخي الدمشقي الحنبلي، المولود سنة ٦٣٢هـ، أخذ عنه ابن تيمية الفقه، توفي سنة ٦٩٥هـ[6].

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام للذهبي، ص(٢٢).
(٢) شذرات الذهب، (٥/ ٣٧٦)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٠٧).
(٣) البداية والنهاية، (١٣/ ٣٢)، وشذرات الذهب، (٥/ ٣٧٦).
(٤) البداية والنهاية، (١٣/ ٣٤١)، وشذرات الذهب، (٥/ ٤٢٣، ٤٢٤).
(٥) الدارس في تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (١/ ٧٤)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٨٧)، وشذرات الذهب، (٥/ ٣٧٦).
(٦) البداية والنهاية، (١٣/ ٣٤٥)، وذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٢٠١)، وشذرات الذهب، (٥/ ١٧).

٦- الإمام الفقيه النحوي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي، فقيهٌ محدّث، نحوي، ناظم، قرأ ابن تيمية عليه العربية، توفي سنة ٦٩٦هـ[١].

٧- الإمام الفقيه القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن المغني السروجي الحنفي، توفي سنة ٧١٠هـ[٢].

٨- الإمام فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد السعدي المقدسي الصالحي الحنبلي المعروف بابن البخاري، المولود سنة ٥٩٥هـ، كان شيخًا عالمًا فقيهًا زاهدًا عابدًا مسندًا مكثرًا مكرمًا للطلبة، حدّث نحوًا من ستين سنة، توفي سنة ٦٩٠هـ[٣].

٩- الشيخ الفقيه الإمام العالم البارع جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن سليمان بن سعيد بن سليمان البغدادي، المولود سنة ٥٨٥هـ بحرّان نزيل دمشق، توفي سنة ٦٧٢هـ[٤].

١٠- الإمام المحدث مسند الشام الكاتب المنشئ تقي الدين أبو محمد بن إسماعيل بن أبي اليسر التنوخي، ولد سنة ٥٨٩هـ، وسمع منه ابن تيمية سنة ٦٦٩هـ، وتوفي سنة ٦٧٢هـ[٥].

• تلامذتُه:

عُرف شيخ الإسلام ابن تيمية بكثرة تلاميذه والمستفيدين منه، وكان من الطبيعي أن يكونَ له نفوذٌ قوي في عصره الذي عاش فيه، بما قد رزقه الله من حياة مشغولة بالعمل الإسلامي العظيم، ومِن شخصيّة عملاقة جبارة، ولا غرْوَ أن يتجمّع حوله حشدٌ كبير مِن تلاميذه والمعجبين به[٦].

لقد ربّى شيخ الإسلام ابن تيمية جيلًا عالمًا مجاهدًا، شارك معه أحداث عصره، فأصابه ما أصاب الشيخ من السرّاء والضّراء، ووقف معه يجابه الأحداث من قتال للتتار، وقيام بواجب

---

(١) الوافي بالوفيات، (٣/ ٢٨٧)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٣٣٣)، وشذرات الذهب، (٥/ ٤٥١).
(٢) البداية والنهاية، (١٤/ ٦٠)، وطبقات الحنفية، (١/ ٥٣).
(٣) شذرات الذهب، (٥/ ٤١٣)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٨٧).
(٤) شذرات الذهب، (٥/ ٣٣١)، والبداية والنهاية، (١٤/ ١٣٧)، والعبر، (٥/ ٢٩٣).
(٥) انظر: شذرات الذهب، (٤/ ٣١٦)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٦٧)، والعبر، (٥/ ٢٩٩)، وراجع: شيخ الإسلام ابن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ص(١١٣: ١١٧).
(٦) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٠٣).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالقوة حينًا وبالموعظة الحسنة حينًا آخر، كما شاركه الدعوة والإرشاد والتدريس والإفتاء، والكتابة والتصنيف والتأليف[1].

إنّ شيخ الإسلام فاقَ في كثرة تلامذته كلّ شيوخ عصره، حيث كان له تلاميذ ومريدين، في كلّ البلاد التي انتقل إليها، من الشام والإسكندرية والقاهرة بمصر[2].

ولعلّ كثرةَ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ترجعُ إلى أسبابٍ، منها:

١- ما كانَ يتمتّع به من شخصيةٍ عملاقة جبّارة تستهوي الأذكياء، وأصحاب القدرات العالية، مع ما أوتيه مِن قدرةٍ على التأثير في مَن حوله، مع عمل دءوب للإسلام على مختلف الجبهات والمجالات المختلفة.

٢- غزارة علمه، وسعة معارفه واطّلاعه على شتى العلوم والمعارف التي كانت معروفةً في عصره ممّا جعله مَقصدًا لطلبة العلم الراغبين في أن ينهلوا من هذه الينابيع الغزيرة من العلوم المختلفة، ممّا أعطاه قدرةً عالية في جذب طلبة العلم إليه، مع ما أوتيه من فصاحة لسانٍ وقدرةٍ بيانية عالية.

٣- كثرة تنقّلاته بين مصر والشام ممّا كان له أكبر الأثر في استفادة الكثيرين من علومه حيثما نزل أو ارْتحل، لا يحول بينه وبين الاستفادة من علومه حائل، حتى أخذوا عليه في المعتقلات حيث سُجن- رحمه الله تعالى.

٤- إلقاؤه الدروسِ العامّة التي أكسبته علاقاتٍ اجتماعيةً كبيرة مع شرائح واسعة في المجتمع الدّمشقي والقاهري، واكتسب مِن خلال جرأته في قول الحقّ فيها مهابة واحترامًا عند العامّة والخاصّة، فكان له مِن المحبّين في كلّ الطبقات الاجتماعية، وفي ذلك يقول ابنُ الوردي- رحمه الله: «.... له محبّون مِن العلماء والصّلحاء والجند والأمراء والتجّار والكبراء وسائر العامة تحبّه»، ويضاف إلى ذلك الدروس الخاصّة التي كان يُلقيها على خاصّة تلاميذه، والتي مِن خلالها برزت مداركُه وقدراته الهائلة في العلم والمعارف.

(١) أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، ص(١٣٤).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٤٣٧).

٥- احترامه ومحبّته لتلاميذه وبذْله العلم لهم، مع تلمّسه حاجاتهم وقدراتهم، وحسن تعامله مع هذه القدرات والكفاءات تهذيبًا وتنمية وتعميقًا ممّا رزقه هؤلاء التلاميذ كثيرًا من الثّقة بالنفس، والجرأة في قول الحقّ والدّفاع عنه، مهْما كانت العوائق التي تعوق ذلك[1].

بيْدَ أنّه يلاحظ أنّ تلاميذه نوعان؛ لأنّ دروسه كانت نوعيْن: فالنوع الأول من درْسه دروس عامّة يلقيها على العامة في المسجد الجامع يرشدهم ويبين لهم الاتباع وحقيقته، ويجنّبهم الابتداع، كما كان الشأنُ في كثيرٍ من دروسه بمصر، وببعض دروسه العامة في الشام، وحيثما حلّ، كما فعل بغزّة عندما مرّ بها، وهو مُقبلٌ إلى مصر، وقد كان له تلاميذ في هذه الدّروس العامّة يلازمونه، وإن كان الأحْرى أنْ ليسوا أكثر مِن مُريدين؛ لأنّهم لا طاقة لهم بأنْ يدركوا كلّ مدارك الشيخ حتى يكونوا تلاميذ بالمعنى الخاص الذي يرثون فيه علمَه.

والقسمُ الثاني مِن دروسه: دروس خاصّة كان يلقيها على تلاميذه الذين اختصّوا بعظَم المدارك، وصلحوا لأنْ يكونوا ورثته في علمِه مِن بعده، والقائمين على تركته الفكريّة وخلفاءَه عليها، وهؤلاء هُم الذين كان يلقي عليهم كلّ تفكيره ومنهاجه في مدارس الشام وبعض الاجتماعات الخاصّة في مصر والشام.

وإنّ هذا القسْم من التلاميذ الذين قاموا على تركتِه الفكرية مِن بعْده، وأكثرهم مِن الحنابلة وكثير منهم مِن الشافعيّة، وعددُهم لا يحصى، فقد كانوا كثيرين لطول المدّة التي ألقى دروسَه فيها، فقد ألقى دروسَه نحْوًا مِن ستّة وأربعين عامًا، دائبًا لا يني ولا يملّ ولا يكلّ، أي: مِن وقتِ أنْ توفي أبوه وهو في الحادية والعشرين إلى أنْ قبضه الله إليه، وقد بلغ السابعة والستين، ولقد كان أولئك الخاصّة مِن تلاميذه ينالهم الاضطهاد إذا اعْتقل، فقد كانوا معَه في البلاء كما كانوا معه في الدرس[2].

وقد تميّز مِن بيْن هؤلاء التّلاميذ تلميذُه النّجيب الحافظ ابن قيم الجوزية، الذي يعتبر خليفتَه الراشد ومدوّن علومه مِن بعده؛ لأنه تفرّد بخصائص ومزايا لا تتوفّر في غيره مِن تلاميذه، فقد

(١) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، ص(١٣٧، ١٣٨).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٤٣٧، ٤٣٨).

ظلّ يشارك أستاذه في أحواله وأعماله، ولم يفارقْه حتى آخر لمحةٍ من حياته، وثبت على جادته بعد وفاته، من غير أن يفتر حبّه له، وإعجابه به، وإنّ خدماته العلمية وجلالة قدره وفضائله لجديرةٌ بتأليف كتابٍ مستقلّ عنه، يبحث عن مؤلفاته ودراساته الطيبة بغايةٍ من التفصيل[1].

وللإمام ابن القيم فضائلُ لا تخفى، حتى إنّ الحافظ ابن حجر ٨٥٢ هـ صاحب فتح الباري يقول: «لو لم يكنْ للشيخ تقي الدين مِن المناقب إلّا تلميذه الشيخ الشهير شمس الدين ابن القيم الجوزي صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافِقُ والمخالف لكان غايةً في الدّلالة على عظم منزلته، فكيف وقدْ شهد له بالتقدم في العلوم والتميّز في المنطوق والمفهوم أئمةُ عصرِه من الشافعية وغيرهم، فضلًا عن الحنابلة، وكان تلميذه الذهبي له فضلٌ على الأمّة لا يُنسى في تأليف كتب التراجم»، وذكر السنماري وقيعة التاج السبكي في الذهبي فقال: ويكفينا في جلالته شرب شيخنا (أي: ابن حجر) ماءَ زمزم لنيل مرْتبته، وهل انتفع الناس في هذا الفنّ بعده وإلى الآن بغير تصانيفه، والسعيد مَن عدّت غلطاته[2].

وسنذكر أسماءَ أهمّ تلاميذه على النحو الآتي:

١ـ الإمام ابن القيم صاحب زاد المعاد، وهو محمد شمس الدين أبو عبد الله الزرعي، ولد في دمشق عام ٦٩١ هـ، وتوفي عام ٧٥١هـ[3].

٢ـ الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي، وهو شمس الدين الملقب بالعماد، ويكنى أبا عبد الله وأبا العباس، وعُرف بوجْه عام بابن عبد الهادي، ولد عام ٧٠٤، وتوفي عام ٧٤٤هـ[4].

٣ـ الحافظ ابن كثير، وهو عماد الدين إسماعيل بن عمر، يكنّى أبا الفداء، ويُعرف بابن كثير، ولد عام ٧٠٤، وتوفي عام ٧٧٤ [5].

---

(١) رجال الفكر والدعوة، للإمام أبي الحسن الندوي، ص(٣١٧).

(٢) دعوة شيخ الإسلام وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة، وموقف الخصوم منها، ص(٧٩، ٨٠)، ط: دار ابن الأثير، الكويت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

(٣) شذرات الذهب، (٦/ ١٦٧)، والبداية والنهاية، (١٤/ ٤٠٢).

(٤) البداية والنهاية، (١٤/ ٢٢١)، ومعجم المؤلفين، (٨/ ٢٨٧).

(٥) شذرات الذهب، (٦/ ٢٣٠)، وذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٢٢٤)، وتذكرة الحفاظ، (٤/ ١٥٠٨).

٤ـ الحافظ ابن رجب، وهو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ولد سنة ٧٣٦، وتوفي سنة ٧٩٥هـ[١].

٥ـ علم الدين البرزالي وفاته سنة ٧٣٩هـ، وهو صاحب التاريخ والمعجم[٢].

٦ـ جمال الدين المزي، وفاته سنة ٧٤٢هـ، وهو صاحب تهذيب الكمال في الرجال[٣].

٧ـ شمس الدين الذهبي، وفاته ٧٤٨هـ، صاحب تذكرة الحفاظ، وميزان الاعتدال[٤].

٨ـ سليمان بن عبد القوي الطوخي الصرصري، توفي سنة ٧١٦هـ[٥].

٩ـ عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري الحلبي، توفي سنة ٧٤٩هـ[٦].

١٠ـ عمر بن علي بن قوس بن خليل البغدادي البزار، توفي سنة ٧٤٩هـ[٧].

١١ـ عمر بن سعد الله بن عبد الأحد الحراني، ثمّ الدمشقي، توفي سنة ٧٤٩هـ[٨].

١٢ـ محمد بن علي بن أبي الفتح بن أسعد بن المنجي الحميلي، توفي سنة ٧٥٤هـ[٩].

١٣ـ حمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الراميني الدمشقي، توفي سنة ٧٦٣هـ[١٠].

١٤ـ محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر الداراني الدمشقي، توفي سنة ٧٦٤هـ[١١].

١٥ـ أحمد بن الحسن بن الخطيب بن قدامة المقدسي قاضي الجبل، توفي سنة ٧٧١هـ[١٢].

---

(١) طبقات الحفاظ، (١/ ١١٤)، وشذرات الذهب، (٦/ ٣٣٩)، وطبقات المفسرين، (١/ ٢٥٣).
(٢) البداية والنهاية، (١٤/ ٢١٦)، والشهادة الزكية، (١/ ٦٠).
(٣) تذكرة الحفاظ، (٤/ ١٩٣)، والبداية والنهاية، (١٤/ ١٩١)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٣٥).
(٤) البداية والنهاية، (١٤/ ١٦٤)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٥١-١٥٦)، والوافي بالوفيات، (١/ ٢١٧).
(٥) شذرات الذهب، (٦/ ٣٨).
(٦) البدر الطالع، (١/ ٤٩١)، والدرر الكامنة، (٢/ ٢٤٦).
(٧) شذرات الذهب، (٦/ ١٦١)، والدرر الكامنة، (١/ ٤٠٤).
(٨) ذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٣٦٠)، والدرر الكامنة، (١/ ٣٩٩)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٦٢).
(٩) الدر الكامنة، (٣/ ٣٩)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٧٦).
(١٠) شذرات الذهب، (٦/ ١٩٨)، والبداية والنهاية، (١٤/ ٢٥٢).
(١١) البداية والنهاية، (١٤/ ٣٠٣)، والنجوم الزاهرة، (٥/ ٢٧٥)، وشذرات الذهب، (٦/ ٢٠٣).
(١٢) معجم المؤلفين، (١/ ١٩٤)، وشذرات الذهب، (٦/ ٢١٧)، والبداية والنهاية، (١٤/ ٢٧٢)، والدرر الكامنة، (٤/ ٨٥).

وهناك عددٌ كبير من العلماء في القرن الثامن والتاسع عدّوا تلاميذَ لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذَ تلاميذه المذكورين ممّن لا يصرّح التاريخ بأنهم تلاميذُ مدرسة شيخ الإسلام، إلّا أنّ مؤلفاتهم تنطق بأفكار شيخ الإسلام وروحه وعلمه، ودعوته، وسواء استفاد هؤلاء العلماءُ مِن تلاميذ شيخ الإسلام ومؤلفاته أمْ لمْ يستفيدوا فإنهم لاتحاد ذوقهم وفكرهم جديرون بالاعتبار في وصفِ تلاميذه، والمتخرّجين من مدرسته.

وأخصّ بالذّكر مِن بين هذه الشخصيات مؤلف كتاب الموافقات العلّامة البارع أبا إسحاق الشاطبي المتوفي سنة ٧٩٠هـ، الذي يبدو كتابه (الاعتصام) حلقة مِن هذه السّلسلة الإصلاحية التي كان قد بدأها شيخ الإسلام في عصره، وهو كتابٌ جيد في موضوع السنّة والبدعة يمتاز بمعلوماته الغزيرة وجودته الأصولية[1].

• **وفاتُه:**

بَقِي الشَّيْخ - رحمه الله - إلى لَيْلَة الاثْنين العشرين من ذِي القعدَة الحَرام، وَتُوفِّي إلى رَحْمة الله- تعالى- ورضوانه فِي بكرَة ذَلك اليَوم، وَذَلِكَ مِن سنة ثَمانٍ وَعشْرين وَسبعمائة، وَهُوَ على حَاله مجاهدًا فِي ذَات الله- تعالى- صابرًا مُحتسبًا، لم يجبنْ وَلم يهلعْ وَلم يضعفْ وَلم يتَتَعْتع، بل كانَ - رحمه الله - إلى حِين وَفاته مُشتغلًا بِاللَّه عَن جَمِيع مَا سواه.

قالوا: فَما هُوَ إلَّا أن سمع النَّاس بِمَوْتِه، فَلم يبْق فِي دمشق من يَستَطيع المجيء للصَّلاة عليه وأراده إلَّا حضر لذَلِك، وتفرّغ لَه حتَّى غلقت الأسواق بدمَشْق، وعطلت معايشها حينَئذٍ، وَحصل للنَّاس بمصابه أمرٌ شغلهمْ عَن غالب أمورِهم وأسبابهم، وَخرج الأمراء والرؤساء وَالعُلَماء وَالفُقَهاء والأتراك والأجناد وَالرِّجال وَالنِّساء وَالصبيان مِن الخَواص والعوام. قَالوا: وَلم يتَخَلَّف أحد مِن غَالب النَّاس- فِيما أعْلَم- إلَّا ثَلاثَة أنفس كَانُوا قد اشتهروا بمُعاندته، فاختفوا من النَّاس خوفًا على أنفسهم بِحَيثُ غلب على ظنّهم أنّهم مَتى خَرجُوا رجَمَهُم النَّاس فأهلكوهم.

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٢٦).

فَغسّل – رحمه الله – وكفّن.

قَالوا: وازدحم مَن حضرَ غُسله من الخاصَّة والعامة على المَاء المُنْفَصِل عَن غسله حَتَّى حصل لكلّ واحِد مِنْهُم شَيء قَليل، ثمّ أخرجت جنازَته فَما هُوَ إلَّا أن رَآهَا النَّاس فأكبّوا عَلَيْها مِن كلّ جَانب، كلًّا مِنهُم يقْصد التَّبرُّك بها حتَّى خشي على النّعش أن يحطم قبل وُصُوله إلَى القَبْر، فأحدق بها الأمراء والأجناد واجْتمعَ الأتراك فَمنعوا النَّاس مِن الزّحام عَلَيها خَشيَة مِن سُقُوطها، وَعلَيْهم مِن اختناق بَعضهم، وَجعلوا يردّونهم عَن الجِنازَة بِكُلّ ما يُمكنُهم، وهُم لاَ يزدادون إلَّا ازْدحامًا وكَثْرَة حتَّى أدخلت جامع بني أُميَّة المحروس ظنًّا مِنْهُم أنّه يسعُ النَّاس، فَبقيَ كثيرٌ من النَّاس خَارج الجامع.

وَصُلّيَ عَلَيهِ – رحمه الله – فِي الجامع، ثمّ حُمل على أيْدي الكبراء والأشراف وَمَن حصل لَه ذَلك مِن جَميع النَّاس الى ظاهِر دمشق، وَوضع بِأرْض فسْحة متّسعة الأطراف، وَصلّى عَلَيه النَّاس[1].

***

(١) الأعلام العلية، ص(٨٣، ٨٤).

المبحثُ الرّابع

ثناءُ العلماءِ عليه

تعدّدت مناقبُ ابن تيمية ومميّزاته؛ فزادت مكانتُه العلمية، وأعلى الله ذكرَه بين الناس، وتعدّد ثناؤهم عليه، قُدامى ومُحدثين، مُعاصرين له وتالين، حتى قال بعضهم عنه: «ابنُ تيمية أكبرُ مِن أن ينبّه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الرّكن والمقام لحلفتُ أنّي ما رأيت بعيني مثلَه، ولا رأى هو مثل نفسِه في العلم، وكان فيه قلّة مُداراة وعدم تؤدة غالبًا، ولم يكنْ من رجال الدّول، ولا يسلك معهم تلك النواميس»[1].

ومِن هؤلاء الذين أثْنوا عليه الإمام الذهبي[2] تلميذُه النجيب، فقد أحبّ الذهبي شيخه ورفيقه، وأعجبَ به، فقال بعدَ أنْ مدحه مدحًا عظيمًا: «وهو أكبرُ مِن أن ينبّه مثلي على نُعوته، فلو حلفت بين الرّكن والمقام لحلفتُ أنّي ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسِه في العلم»[3].

ووضّح الذّهبي جوانبَ ومؤهلات ابن تيمية لهذه المنزلة بأنّه «نظر في العقليات، وعرفَ أقوال المتكلمين وردّ عليهم ونبّه على خطئهم وحذّر، ونصر السنّة بأوضح حججٍ وأبْهر براهين، وأوذي في ذاتِ الله مِن المخالفين، وأخيف في نصْر السنة المحْضة حتى أعلى الله منارَه، وجمع قلوبَ أهل التّقوى على محبّته والدّعاء له، وكبتَ أعداءه، وهدى بِه رجالًا كثيرة من أهْل الملل والنحل، وجبل قلوبَ الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، وأحيى به الشام بل

(١) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم للقنوجي، (٣/ ١٣٣)، والعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٥١).

(٢) هو الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين أبو عبد الله، حافظ مؤرخ علّامة محقّق، تركماني الأصل، ولد في دمشق عام ٦٧٣ هـ، وتوفي عام ٧٤٨، له تصانيف كثيرة كبيرة تقارب المائة منها: دول الإسلام، سير أعلام النبلاء، تذكرة الحفاظ، العبر في خبر من غبر). راجع: سير أعلام النبلاء، (١/ ٦٥)، وما بعدها، والدرر الكامنة، (٣/ ٣٣٦).

(٣) سير أعلام النبلاء، (١/ ٣٧).

الإسلام بعد أن كاد ينثلم، خصوصًا في كائنة التتار، وهو أكبرُ مِن أن ينبّه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه» انتهى كلام الذهبي.

وكتب الشيخ كمال الدين بن الزملكاني[1] تحت اسم ابن تيمية: كان إذا سئل عنْ فنٍّ مِن العلم ظنّ الرائي والسّامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء مِن سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء، ولا يعرف أنه ناظرَ أحدًا فانقطع معه، ولا تكلّم في علمٍ من العلوم سواء كان مِن علوم الشّرع أو غيرها إلا فاق فيه أهلَه، واجتمعت فيه شروطُ الاجتهاد على وجْهها.

وكتب الحافظ ابن سيد الناس[2] في جواب سؤالات الدمياطي في حقّ ابن تيمية: ألفيته ممّن أدرك مِن العلوم حظًّا، وكان يستوعب السننَ والآثار حفظًا، إن تكلّم في التفسير فهو حاملُ رايته، وإنْ أفتى في الفقه فهو مُدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحبُ علمه وذو روايته، أو حاضر بالنّحل والملل لم يرَ أوْسع مِن نحلته، ولا أرفع مِن درايته، برز في كلّ فنّ على أبناءِ جنسه، ولم ترَ عين مَن رآه مثله، ولا رأتْ عينه مثلَ نفسه»[3].

---

(١) هو محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري، كمال الدين، المعروف بابن الزملكاني، فقيه انتهت إليه رياسة الشافعية في عصره، ولد في دمشق عام ٦٦٧هـ وتعلّم بها، وتصدّر للتدريس والإفتاء، وولي نظر ديوان الأفرم، ونظر الخزانة ووكالة بيت المال، وكتب في ديوان الإنشاء، وولي القضاء في حلب، فأقام سنتين وطلب لقاءَ مصر فقصدها، وتوفي في بلبيس عام ٧٢٧هـ، ودفن في القاهرة). راجع: البدر الطالع، (٢/ ٢٠٥)، والعبر في خبر من غبر، (١/ ٢٨٩)، وشذرات الذهب، (٨/ ٢٥٣، والوافي بالوفيات، (٢/ ٢٥).

(٢) الحافظ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو الفتح العمرى، صاحب التصانيف في الحديث منها: سيرة كبرى جليلة، وأخرى صغيرة جدًّا وهى مفيدة، وشرح قطعة من الترمذي، وبها أكثر فوائده وأبرعه ويعزّ كماله على نمطه الغريب، الحديث من الشيخ تقى الدين القشيري وغيره، ورحل إلى الشام سنة تسعين وستمائة فلم يدرك الفخر بن البخاري، فمات وهو في الكسوة فدخلها، وسمع من غيره، وحدث وعاد بجامع ابن طولون). راجع: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص(٤٢٧).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (٦/ ٨١).

وللشيخ أثير الدين أبي حيان النحوي[1]: لمّا دخل الشيخ مصر واجتمع به فأنشد أبو حيان:

لمّا رأينا تقي الدين لاحَ لنا ... داع إلى الله فردًا ما له وزر
على محيّاه مِن سيما الأولى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربَل منه دهره حبرًا ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصْر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ عصت مضر
فأظهر الدين إذْ آثاره درست ... وأخمد الشرك إذ طارت له شرر
يا مَن تحدّث عن علم الكتاب أصخ ... هذا الإمام الذي قد كان ينتظر

يشير بهذا إلى أنه المجدّد.

وممّن صرّح بذلك الشيخ عماد الدين الواسطي[2]، وقد توفّي قبل الشيخ، وقال في حقّ الشيخ- بعْد ثناءٍ طويل جميل- ما لفظه: فوَ الله، ثمّ والله، ثمّ والله، لم يُرَ تحت أديم السّماء مثل شيخكم ابن تيمية علما وعملًا وحالًا وخلقًا واتّباعًا وكرمًا وحلمًا وقيامًا في حقّ الله عند انتهاك حرماته، أصدقُ الناس عقدًا، وأصحّهم علمًا وعزمًا، وأنفذهم وأعْلاهم في انتصار الحقّ وقيامه همّة، وأسخاهم كفًّا، وأكملهم اتّباعًا لنبيه محمد، ما رأينا في عصرنا هذا مَن تستجلي النبوّة المحمدية وسننها مِن أقواله وأفعاله إلّا هذا الرّجل، يشهد القلب الصحيح أنّ هذا هو الاتباع حقيقة.

---

(١) محمد بن يوسف بن علي بن حيان بن يوسف الأندلسي أثير الدين أبو حيان: إمام أهل عصره في النحو، والتصانيف، له: «البحر المحيط في التفسير»، و«شرح التسهيل»، و«الإرشاد» وغير ذلك، وكانت له معرفة بالقراءات، ودرس بالقبة المنصورية في الحديث وبالجامع الطولوني في التفسير، وتذهّب للشافعي). راجع: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص(٤٢٣).

(٢) هو الإمام العارف الزاهد القدوة عماد الدين أحمد بن شيخ الحزامين إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي، صاحب التواليف في التصوف، كان من سادة السالكين، له مشاركة في العلوم، وعبارة عذبة، ونظم جيد، ولد ٦٥٧هـ بشرق واسط، وتوفي عام ٧١٢هـ. راجع: العبر في أخبار من غبر، (١/ ٢٧٣)، وتذكرة الحفاظ، (٤/ ٣١٩)، وذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٣٢٦).

وقال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[1]- وقد سُئل عن ابن تيمية بعد اجتماعه به: كيف رأيته؟ فقال: رأيتُ رجلًا سائرُ العلوم بين عينيه، يأخذُ ما شاء منها، ويترك ما شاء.

فقيل له: فلمَ لا تتناظرا؟

قال: لأنّه يحبّ الكلام، وأحبّ السكوت.

وقال برهانُ الدين بن مفلح في طبقاته: كتب العلامة تقي الدين السبكي إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية: فالمملوك يتحقّق قدره وزخارة بحْره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغَ من ذلك كلّ المبلغ الذي يتجاوزه الوصْف، والمملوك يقول ذلك دائمًا، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجلّ، مع ما جمعَه الله له مِن الزّهادة والورع والدّيانة ونصرة الحقّ والقيام فيه، لا لغرضٍ سواه، وجريه على سنن السّلف، وأخذه مِن ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل مِن أزمان» انتهى.

وقال العلّامة الحافظ ابن ناصر الدين في شرح بديعته- بعد ثناءٍ جميلٍ وكلام طويل: حدّث عنه خلقٌ منهم؛ الذهبي، والبرزالي، وأبو الفتح بن سيد الناس، وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الأكياس، وقال الذهبي في عدّ مصنّفاته المجودة: وما أبعد أنّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وأثنى عليه الذّهبي وخلْقٌ بثناء حميد، منهم الشيخ عماد الدين الواسطي العارف، والعلامة تاج الدين عبد الرحمن الفزاري[2] وابن الزملكاني وأبو الفتح وابن دقيق العيد، وحسبه من الثناء الجميل قولُ أستاذ أئمة الجرح والتعديل أبي الحجاج المزي الحافظ الجليل؛ قال عنه: ما رأيت مثلَه، ولا رأى هو مثلَ نفسِه، وما رأيت أحدًا أعلمَ بكتاب الله وسنة رسوله

---

(١) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، أبو الفتح تقي الدين القشيري المعروف بابن دقيق العيد، قاضي، من أكابر العلماء في الأصول، مجتهد أصل أبيه من منفلوط بمصر، انتقل إلى قوص، ولد سنة ٦٢٥هـ، وتوفي ٧٠٢هـ، له تصانيف منها: إحكام الأحكام، الإلمام بأحاديث الأحكام، تحفة اللبيب في شرح التقريب، ولي القضاء في الديار المصرية سنة ٥٩٥هـ. راجع: الوافي بالوفيات، (٢/ ١٧)، والبدر الطالع، (٢/ ٢٢١، ٢٢٣)، وتذكرة الحفاظ، (٤/ ٣١٨).

(٢) هو أحمد بن حصن بن عبد الرحمن الفزاري النسائي، روى عن ابن أبي الزبير والأوزاعي وجرير بن حازم. راجع: تهذيب التهذيب، (٤/ ١٣٤).

ولا أتبَعَ لهما منه، وترجمه بالاجتهاد، وبلوغ درجته، والتمكّن في أنواع العلوم والفنون. ابن الزملكاني والذهبي والبرزالي وابن عبد الهادي، وآخرون.

ولا يخلف بعده مَن يقاربه في العلم والفضل»[1].

وقال عنه بعضُهم: إنه «ممّن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا، إنْ تكلّم في التّفسير فهو حاملُ رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدركٌ غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحبُ علمه وذو روايته، أو حاضر بالنّحل والمِلل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك، ولا أرفع من درايته، برز في كلّ فنٍّ على أبناء جنسه، ولم ترَ عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجمّ الغفير، ويردون مِن بحر علمه العذب النّمَير، ويرتعون مِن ربيع فضله في روضة وغدير»[2].

وقال الشيخ علمُ الدين البرزالي في معجم شيوخه معرّفًا بالشيخ واصفًا علمه، وما نبغَ فيه، مُظهرًا كيف حازَ رتبة الاجتهاد، مُبينًا سعةَ ثقافته، ومدى انتفاع الناس به وبكلامه؛ بأنّ ابن تيمية «مجمَعٌ على فضله ونُبله ودينه، قرأ الفقهَ وبرع فيه، والعربية والأصول، ومهَرَ في علمي التفسير والحديث، وكان إمامًا لا يلحق غباره في كلّ شيء، وبلغ رتبةَ الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير بهِتَ الناس من كثرةِ محفوظه، وحُسن إيراده، وإعطائه كلّ قولٍ ما يستحقّه من الترجيح والتّضعيف والإبطال، وخوضه في كلّ علم، كان الحاضرون يقضون منه العجب، هذا مع انقطاعه إلى الزّهد والعبادة والاشتغال بالله- تعالى، والتجرّد من أسباب الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله- تعالى، وكان يجلس في صبيحة كلّ جمعة على الناس يفسّر القرآن العظيم، فانتفع بمجلسِه وبركة دعائه وطهارة أنفاسه وصدق نيّته وصفاء ظاهره وباطنه وموافقة قولِه لعمله، وأناب إلى الله خلقٌ كثير، وجرى على طريقةٍ واحدة من اختيار الفقر والتقلّل من الدنيا»[3].

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب للدمشقي، (٦/ ٨٢).
(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٦).
(٣) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٧).

وعن حبّ النّاس له من العامّة والخاصّة يذكر ابن رجب أنّ العلماء والصّلحاء والجند والأمراء والتجار وسائر العامة كانت تحبّه؛ لأنّه مُنتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا بلسانه وعلمه»[1].

وكانتْ لابن تيمية خبرةٌ تامّة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصّحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيبٌ في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزْوه إلى الكتب الستّة والمسند بحيث يصدق عليه أنْ يقال: كلّ حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنّه يغترف فيه مِن بحر، وغيره من الأئمّة يغترفون من السّواقي، وأمّا التفسير فسلم إليه، وله في اسْتحضار الآيات للاستدلال قوةٌ عجيبة، ولفرط إمامتِه في التفسير وعظمة اطّلاعه بين خطأ كثيرٍ مِن أقوال المفسرين، ويكتب في اليوم والليلة مِن التّفسير أو مِن الفقه أو مِن الأصلين أو مِن الردّ على الفلاسفة والأوائل نحوًا مِن أربعة كراريس، وما يبعد أنّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وله في غيْر مسألة مصنّف مُفرد كمسألة التحليل سمّاه: بيان الدليل على إبطال التحليل، مجلد وغيرها، وله: مصنّف في الردّ على ابن مطهر الرافضي الحلي في ثلاثة مجلّدات كبار سمّاه: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية وتصنيف في: الردّ على تأسيس التقديس للرازي في سبعة مجلّدات، وكتاب في: الردّ على المنطق، وكتاب في: الموافقة بين المعقول والمنقول في مجلّدين، وقد جمع أصحابه مِن فتاواه ستّة مجلّدات كبار، وله باعٌ طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين قلّ أنْ يتكلّم في مسألة إلّا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائلَ معروفة، وصنّف فيها واحتجّ لها بالكتاب والسنة »[2].

• **خلاصةٌ واستنتاج:**

وقفنا في هذا الفصل على بعض الملامح الباهرة في حياة ابن تيمية- رحمه الله، على مستوى الصفات الخلقية، وعلى مستوى الصفات العلميّة، وامتاز عصرُه بأحداث جِسام بالغة الأهميّة

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (٦/ ٨٢).
(٢) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم للقنوجي، (٣/ ١٣١).

والخطورة؛ فقد وقع في عصره اعتداءاتُ الصليبيّين والتتار بوحشيّتهم وأطماعهم على الأمّة المسلمة، ممّا حدّد اتجاهه وهدفه في الحياة، فقد كان إمامًا مجاهدًا عن الأمّة ضدّ هؤلاء.

لقد نشأ شيخُ الإسلام في تصوّن تامّ في بيتٍ به العلماء والأتقياء؛ فقد كان أبواه وأجداده وإخوانه وكثيرٌ من أعمامه مِن العلماء المعروفين.

كان ابنُ تيمية حنبليًّا بنشأته وأسرته وثقافته الفقهية، ولكن له اختياراته من غير مذهب أحمد.

وشاءت إرادة الله- تعالى- أنْ يولَد ابن تيمية والدولةُ الإسلامية في حالةٍ من الضّعف والتمزّق الشديديْن؛ فقد زالت هيبةُ الخلافة، وزالت وحدة الأمّة، وتصارع الأمَراء على الجاهِ والدّنيا، وظهر التتار فنهبوا البلادَ وقتلوا العباد، ولم يكن الشيخ بعيدًا عن أحداثِ عصره؛ بل شارك في تلك الأحداث مشاركةَ العالم العامل المجاهد، فامْتشقَ حُسامه وحارب التتار بسيفه كما حاربهم بلسانه وقلمه.

حاول الشيخُ جمعَ الأمّة وتوحيدَها مؤمنًا بأنّ النزاع والخلاف سببُ هزيمة الأمّة، فأعلن الدّعوة إلى توحيد الجميع على الكتاب والسنة، ويجمع هذا قلوب جميع الموحّدين، عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

وتلبية للنداء الإلهي: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ودعا إلى ترك المذاهب الباطلة، التي لا تتّفق مع الكتاب والسنة، وردّ على الباطنية وغيرهم، وهكذا كانت طريقتُه في الإصلاح.

لقد قام بدراسة الكتب الفلسفية وكتب المنطق للردّ عليهم ردًّا نزيهًا معتبرًا.

وابتلي ابن تيمية ابتلاءً شديدًا؛ فقد أعلن المخالفون له الحربَ عليه ودبّروا له الفتن والدّسائس، فسُجن مرّتين حتى توفي في سجنه صائمًا مُعتكفًا على كتاب الله تعالى، وكانت حياته سجلًّا حافلًا بالبطولة والكفاح.

اجتمعت على الشيخ كثيرٌ من قوى الخارج والداخل؛ ففي الخارج تجمّع الصليبيون والتتار، ومِن الدّاخل غلاة الصوفية والباطنية وغيرهم.

امتاز الشيخ- رحمه الله- بخصائص علمية كثيرة، ومنها غزارة العلم، وتنوّع المعرفة؛ فقد أجادَ في علوم القرآن، وعلوم السنة النبوية، وعلوم الفقه، وأحاط بالمذاهب الباطنية، ولم يكن ابن تيمية مختصًّا في علمٍ واحد، بل كان موسوعيًّا في علوم كثيرة.

لقد بدأ التأليف في سنّ مبكرة، كان له تسعة عشر عامًا، وعاش سبعة وستين عامًا كلّها خير وبركة على العلم والعلماء.

امتازت مؤلفاته بغزارة العلم وحسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم، وكانت نظرته شمولية ومتمكّنة، كما اتسمت بسموّ الغاية ونبل الهدف.

لقد نال ثناءَ العلماء في عصره وفي غير عصره؛ فكان كما وصفه بعضُ الواصفين: كالبحر لا تكدّره الدّلاء، رحمه اللهُ رحمة واسعة، وأجزل مثوبته.

***